مصطفى عبد اللطيف السحرتي

شعراء مجددون

مطران

أبو شادي

ناجي

الشابي

التيجاني بشير

جليله رضا

محمود أبو الوفا

رابطة الأدب الحديث

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

شعراء مجددون

بحوث

مطران
أبو شادي
ناجي
الشابي
التيجاني بشير
جليلة رضا
محمود أبو الوفا

رابطة الأدب الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

١٩٥٩

دار الطباعة المحمدية - درب الأتراك بالأزهر بالقاهرة

تصـــــدير

« شعراء مجددون » هو كتاب اليوم الذى تصدره رابطة الأدب الحديث فى هذه الطبعة المتواضعة ، وهو بقلم الناقد الكبير الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتى ، صاحب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ، و « أيدلوجية عربية جديدة » ، و « شعر الطبيعة » و « شعر اليوم » ، وسواها من روائع إنتاجه الأدبى والنقـــدى والقومى .

وقيمة كتاب اليوم « شعراء مجددون » تعود إلى موازينه النقدية الأصيلة ، وإلى أحكامه الأدبية العادلة المنصفة ، وإلى أهمية مؤلفه فى النقد والدراسات الأدبية .

والسحرتى له وزنه عند المنصفين من النقاد ، ومن الأدباء ، ومن المستشرقين ؛ وتتسم دراساته النقدية والأدبية بالعمق والتجديد ، وباستيفاء حاجاتنا القومية فى الأدب وتطويره .

وهو حين يتحدث عن أبى شادى أو ناجى أو مطران أو الشابى أو التيجانى أو جليله رضا أو محمود أبى الوفا ، أو سواهم ، فإنما كان أمينا أبعد حدود الأمانة فى موازينه النقدية ، ومنصفا كل الإنصاف فى أحكامه وآرائه .

ونحن إذ نقدم هذا الكتاب اليوم فإننا دائما نحافظ على الرسالة المقدسة التى تحملها الرابطة ، وتؤدى أمانتها - لخدمة الثقافة العربية ، ولخدمة الأجيال الصاعدة من شبابنا ، ولخدمة روح الكفاح التى انطوى عليها تاريخنا وقوميتنا .

والله الموفق إلى الحق ، والهادى إلى سواء السبيل .

رابطة الأدب الحديث



مقدمة

— ١ —

يضم هذا الكتاب دراسة سبعة من الشعراء العرب المعاصرين هيأت لنا الفرص المواتية الاتصال بالكثير منهم ، والتغلغل في إنتاجهم الشعرى ، والتعرف على أسرار فنهم .

وقد ركزنا جل اهتمامنا على كشف سمات شخصيتهم البارزة ، واتجاهاتهم النفسية المتطورة لأن أغلب ما كتب عنهم إلى اليوم ، دار حول شعرهم ، دون اهتمام يذكر بحياتهم وسماتهم الشعورية والفكرية والخلقية .

وهؤلاء الشعراء وإن تفاوتوا فى الثقافة ، والمعرفة والطاقة الشعرية وطرائق التعبير ، فإنهم يشتركون فى صدق الإحساس وقوة العاطفة ، والإخلاص فى التعبير عن ذواتهم ، وشعرهم المطبوع هو مرآة صادقة لمزاجهم وانفعالاتهم ، وخلجات نفوسهم .

ومثل هذا الشعر الصادق يصلح أساساً وطيداً لتعرف سمات الشاعر الجوهرية ، لأن مادة الشاعر خلاصة من عناصر اللحظات الحاضرة ، والتجاريب والذكريات الماضية .

ومن هذه المادة يستطيع السيكولوجي التعرف على طبيعة الشاعر ودقائق قلبه ، وحالاته النفسية المختلفة فى أطوار حياته .

* * *

— ٢ —

ومن بين من تناولنا خمسة من أعـــلام الشعراء : مطران ، وأبو شـادى ، وناجى ، والشابى ، والتيجانى ؛ فارقوا الحياة بعـد أن سالت عصارة نفوسهم وأذهانهم على القرطاس ؛ وجمعهم فى صعيد واحد النزوع الوجدانى الجياش ، وخلفوا آثاراً وجدانية باقية ، وأغنوا التراث الأدبى غنى أى غنى ، وحياتهم هى مثـال حى للفنان الخلاق الأصيـل ، والإنسان المثالى الحر . فطران هو نموذج نادر الشاعر الفنان النبيل ، والوطنى الحر . وأبو شادى نموذج للشاعر العالم العامل ، وناجى شاعر وجـدانى من الطراز الأول ، وسيكولوجى بصير ، والشابى والتيجانى نموذجان من شباب الشعراء العبقرى الذى سبق جيله بأجيال .

وإلى هؤلاء الشعراء ضممنا شاعرين آخرين هما : محمود أبو الوفا ، وجليلة رضا ـ وأبو الوفا شاعر غنائى من الطراز الأول ، وشعره كان مفازة من الكلاسيكية الجزلة إلى الابتداعية العـذبة ، وهو إلى ذلك رائد من رواد الأغنية المصرية الفصيحة السلسة ، المجردة من الميوعة والإثارة الجنسية .

والشاعرة جليلة رضا ، مفخرة بين لداتها من شاعرات الشرق

العربى ، وشاعرة غنائية وجدانية ممتازة ، ولها تجاريبها الجريئة ، وأسلوبها الطليق الأخاذ .

— ٣ —

وقد وجدنا فى شعر هؤلاء الشعراء السبعة المطبوع آيات بينات على سماتهم البارزة ، وحالاتهم النفسية المتغيرة ، تُعدُّ وثائق قيمة لجوهر شخصيتهم ، ومفتاحا لطبيعتهم الفنية الخلاقة ، ففى قصيدة مطران « هل تذكرين » ، وقفنا على طبيعة مطران الخلاقة ، وروحه المتواضعة النبيلة ، ونزوعه الجمالى والوجدانى ، وفى قصيدة « الجنة الضائعة » للشابى عثرنا على طبيعته الفنية ونزعته إلى الأناقة ، والنزوع الوجدانى الخالص .

وفى قصيدة « الطائر الحائر » للدكتور ناجى عناصر الوجدانى الخالص الموزع بين انفعالات القلق والحيرة ، واليأس والأمل . وفى قصيدتا « ثورة » و « الصوفى المعذب » للتيجانى تحمل الأولى الدلالة الواضحة على نزوعه للخلق الفنى ، والثانية تمثل الترجح بين الشك واليقين فى فترة المراهقة .

وفى غضون هذه الدراسة نلمس حساسية بعض هؤلاء الشعراء ، حساسية مسرفة تخرجهم فى بعض أطوار حياتهم عن الجادة فيكابدون من العُصاب ، أو المرض النفسى ، فمنهم من يحنى رأسه له ، ومنهم من يرتفع عليه ، ويذوِّب قلقه ويعود إلى حالته الطبيعية ، وفى الدراسة

الفياضة لأبى القاسم الشابى ، آية بارزة على مايفعل الاضطهاد والجحود بالشاعر فيخرجه عن طبيعته ، فيمرق مروقا حيناً ، وينادى الموت حيناً آخر ، ونلحظ هذه الظاهرة السيكولوجية لدى التيجانى ، ولدى ناجى بشكل مخفف .

والناظر إلى شعر أبى الوفا ، يجد تحولا بارزاً فى شخصيته ، فمن نزعة ثائرة متوترة فى الشباب إلى نزعة سوية متفائلة فى الكهولة ، فنى قصيدته « ثورة نفسى » بديوانه « أنفاس محترقة » الذى أخرجه فى عام ١٩٣٣ ، نراه يرثى آماله ووجوده ويبكى نفسه ، وفى ديوانه « عنوان النشيد » ، نجد روح الأمل ونزعة التعايش ، والتفاؤل مع الجماعة ، ويطيب لنا أن نسجل أن هذا الديوان الأخير كان بلسما شافيا لمتاعب الدكتور محمود زيتون النفسية ، وقد صرح بهذه الحقيقة فى كتاب أخرجه عن هذا الديوان أسماه « إنسان الفصل الخامس » سجل فيه أن الديوان كان دستوره الأصيل لعمله ، وأنه قاده إلى طريق النور .

وإذا كنا قصرنا البحث فى دراسة الشاعرة جليلة رضا على ديوانها « الأجنحة البيضاء » ووجدنا فى هذا الديوان الغنائى الوجدانى الممتاز ، حقائق سيكولوجية سليمة عن شخصيتها ، ووجدانها ، فلا يفوتنا أن نسجل فى هذه المقدمة ، أن المتعمق فى ديوانها « اللحن الثائر » يجد مجالا خصبا لتعرف طبيعتها ، وحالاتها النفسية المنوعة ، فنى قصيدتها « دعاء الفجر » ص ٨١ ، نجدها تذكر أنها رزقت المال ،

ولم تشعر بقيمته ، وجاءها الحب ولم تسعد بلذته ، وخالطت الناس ، فكابدت منهم الغدر ولدغة اللسان ، ورزئت بمرض ولدها الغالى ، فوقعت فى قلق شديد ، وتوتر نفسى بالغ . وفى قصيدتها البديعة « معجزات القرآن » نجدها تثور على الخالق ، ثم تعود إلى سكونها وإيمانها مستغفرة ، وكذلك تفعل فى قصيدتها « اللحن الثائر » ؛ ومثل هذه القصائد فى ديوانها الذى لم يتسع الوقت لدراسته تفتح على المفاتيح السرية لشخصيتها المتطورة .

— ٤ —

ونود أن نسجل فى هذا المجال ، أن هؤلاء الشعراء السبعة وإن اغترفوا من ينابيع الشعور ، فإن قوة مشاعرهم كانت متفاوتة حدة وتوتراً وثورة ، فكان الشابى وناجى وجاليلة ، أكثرهم توتراً واندفاعا وجريا وراء العاطفة ، وكان التيجانى وأبو الوفا وأبو شادى ومطران يكبحون عواطفهم بالفكر والإرادة .

وقد استطاعوا فى كثير من الأحيان إيجاد تعادل بين عواطفهم وأفكارهم وإراداتهم ، وهذا ملحوظ فى شعر التيجانى الذى كان يربط بين العاطفة والفكرة فى شعره ربطا قويا ، ولم يخرج عن هذا النزوع إلا فى قصائده التصوفية ، التى كانت تتدفق تدفقاً شعوريا تلقائيا ؛ وفى شعر محمود أبو الوفا نجد هذه الظاهرة سافرة .

أما مطران فهو وإن انطلقت مشاعره انطلاقا فياضاً فى عدد من

قصائده ، كقصيدته « الأسد الباكي » التي دبجها في ساعة يأس قاتل ، والتي تنضح بالأسى والمرارة ، وتفصح عن نفسه المتوثرة ، إلا أن أغلب قصائده كانت مزيجاً من العاطفة والفكرة ، مما يدل دلالة أكيدة على تمكنه من إيجاد تعادل وتوازن بين العاطفة والفكرة والإرادة ، وكانت شخصيته جامعة بين الاتزان والنبوغ .

وأبو شادي رغم ما لاقاه من مرارة ، وآلام وجحود ، ورغم وجدانه الزاخر بتنوع الانفعالات ، فقد كان يكبح انفعالاته بقوة فكره ، ويرشف آلامه ، ويحيل كآبته بهجة ، وعبوسه ابتسامة ، واستطاع أن يسيطر على انفعالاته الكدراء بالصبر والجلد ، وقوة الفكر والإرادة ، وبهذا تمكن من إيجاد توازن في شخصيته ، وانثالت العواطف النبيلة من نفسه الصافية المتصوفة ، وكان مثالا للشاعر المحب للناس ، وللحقيقة ، وللتعاون الأدبي ، ولا نعرف مثيلا بين أدبائنا المعاصرين ناظره في القدرة على تحويل انفعالاته السوداء إلى انفعالات وردية بيضاء ، والنظر إلى أقذاء الحياة في رضا وابتسام ، رغم ما كان يدف بقلبه من أحزان :

وفي قصيدته « هدأة الثائر » ، شهادة على هذه الحقيقة ، إذ يقول :

ما بال سخطي يستحيل محبة

كالنار ساعة تستحيل ضياء

ما بال أطياف الربيع تحولت
شجناً وعادت نشوة وعفاء
ما بال عمرى لوعة لا تنتهى
فأجامل الأيام والأرزاء
وأعيش فى دنيا التفاؤل ناسياً
دنيا تفيض قساوة وعداء

— ٥ —

وهذه السمات التى حاولنا الكشف عنها ، جمعنا إليها فى صلب الكتاب نماذج رائعة من شعر هؤلاء الشعراء ، توضح اتجاهاتهم الشعرية ومضامينهم ، وطرائق تعبيرهم ، وأسرار فن بعضهم ، والكل قد اشتركوا فى الإعراب عن خلجات نفوسهم فى صدق وإخلاص ، والكل تحرروا من قيود الصنعة ، وانطلقوا فى أساليبهم البيانية انطلاقاً ، وضربوا المثل الحى على العمل الفنى الخلاق ، فى التدفق الشعورى وتنحية الفكرة فى كثير من نماذج شعرهم ، وكشفوا عن توحد العقل الباطن بالعقل الواعى فى عملية الخلق ، وشاهد ذلك نجده فى مثل قصيدة « حلم فى صحراء » للتيجانى ، أو ملحمة « الأطلال » لناجى وغيرهما من القصائد ، التى تعد إشراقات شعرية أنجبها العقل الباطن والتوهج الشعورى .

وإذا كانوا جميعاً قد داروا حول محاور ثلاثة : الجمالية الأنثوية

والطبيعي ، ونزعات الوجدان ، والحياة ، فإنهم قد تفاوتوا في هذه النواحي كمًّا وكيفاً . فقد أوغل مطران وأبو شادي في الشعر السياسي والوطني وشعر الحرية ، وشعر الطبيعة ، والشعر التصويري .

وقد أفردنا للحرية في شعر مطران مقالا مستقلا ـ وتفتح شعر «أبو الوفا» على شعر القوة والكرامة الإنسانية في ديوانه : « عنوان النشيد » ، وقد أفردنا لهذا الاتجاه التقدمي زاوية من زوايا الكتاب .

وتفرد مطران بالشعر الدرامي المتحرر ، كما تفرد ناجي بالشعر الغنائي الغزلي ، واختص بحيوية التصوير وجزالة الموسيقى وقوة العاطفة ، وتميز أبو شادي : بشعر الطبيعة والحلول فيها ، وتحليل العواطف ، ويعد شعره التقدمي نقطة انطلاق للشعر الحاضر .

ويمثل أبو الوفا النقلة من الشعر الرصين الجزل إلى الشعر اللطيف السلس ، ويتفرد الشابي بشعره الوجداني الخالص ، وموسيقاه الرقراقة ، وتعابيره الطليقة الأنيقة . أما التيجاني فيمتاز برصانته ، وقوة تركيزه الأسلوبي ، ويبهرنا جليلة رضا بتجاربها الوجدانية الجريئة ، وأسلوبها الطليق الرشيق .

وهذه الخصائص الشعرية لهذه الكوكبة من الشعراء تبرز في جلاء ما أتت من تجديدات في الشكل والمضمون ، نعتقد أنها وطأت للانطلاقة الجديدة في الشعر المصري الحاضر .

— ٦ —

ونود قبل أن نختم هذه الكلمة ، أن نسجل ما قمنا به من محاولات فنية لبيان أسرار فن بعض هؤلاء الشعراء ، ومن بينهم ناجي والتيجاني والشابي ، وأبو الوفا .

ونحسب أننا بولوجنا المجال السيكولوجي الذي جُلنا فيه ، والمجال الفني الذي طوّفنا حوله ، قد وضعنا بعض اللبنات في بناء الدراسة الشعرية ، وفهم شعرائنا المعاصرين فهماً أوسع ، والنفاذ إلى صناعتهم الشعرية نفاذاً أعمق ، والسلام ؟

المؤلف

خليل مطران

١٨٧٢ – ١٩٤٩

مطران - الرجل والشاعر

مات الخليل فى مساء ٣٠ يونيو ١٩٤٩ بين انتفاضات القلوب الشاعرة، ولوعات الأرواح المتصوفة، وبموته فقد الشرق العربى، رجولة ممتازة، وشاعرية نابغة.

ولا ريب أن خسارتنا الإنسانية والخلقية بفقده، لا تعادلها إلا خسارتنا الأدبية والفنية بموته، فلقد كان الرجل فذا فى الأدباء، إذ توحدت فيه الشخصية بالنبوغ، واتسم بخلال قلبية وعقلية نادرة، فى زمان نحن أحوج فيه إلى من يرفع أرواحنا، ويضرب لنا المثل فى حب الخير والتواضع والأريحية والإيثار.

وهل فى أدبنا الحاضر، أجمل وأبدع مما قاله هذا الرجل المتواضع الكبير القلب، فى أواخر أيامه؟

كان فى الشعر لى مرام خطير ... فعدا طوقى المرام الخطير

هائم فى الوجود أسأله الوحـ ... ـى كما يسأل الغنى الفقير

أكبرونى ولست أكبر نفسى ... أنا فى الفن مستفيد صغير

لا يضق صدر شاعر بأخيه ... يكره الفضل أن تضيق الصدور

والسماوات لو تأملت فيها ... ليس تحصى شموسها والبدور

كل جرم يعلو ويصبح نجماً ... فله حيز وفيه يدور

والنجوم التى تلوح وتخفى ... ربوات ومايضيق الأثير (١)

(١) الكتاب الذهبى لمهرجان خليل مطران ١٩٤٧ ص ١٤٩.

تلكم النفحات الشعرية التى ألقاها فى حفل تكريمه بين الوجوه المشرقة تتلوها اليوم بين الحسرات المكتومة ، وتجد فيها العبرة . والهمسة الخفية الموحية بأنبل عاطفة ، إنها تفسير حق لفطرة الرجل الأصيلة ، فطرة الحب التى اعتلجت بين جوانحه صغيراً ، وراودته شابا ، وسمت ودقت فى كهولته وشيخوخته : إنها الشريان الهام فى نسيج هذا القلب الكبير الذى ضوأ بالحب النبيل فى شبابه ، وعبر عن هذا الحب فى قصيدته «حكاية عاشقين» (١) وبقيت أعطار هذا الحب بعد موت حبيبته ، وأفصح عن بقائه فى القصيدة التى ناجى فيها عصفورة رآها فى جنيف قرب تمثال جان جاك روسو (٢) فقال:

سيرى وولى صـدرك الـ مشتاق شطر المربع
حتى إذا ما جئتـه وشرعت أعذب مشرع
عوجى ببستان هنا لك فى العراء مضيع
لى فى ثراه دفينـة كالكنز فى المستودع
تخفى الأزاهر قبرها عن أعين المستطلع
قولى له إن جئتـه يا أنس هـذا البلقـع
أتحس فى هـذا الثرى نبضات قلب موجـع ؟
هـذا حنـين من فؤا د محبـك المتفجع

ولم يقف حب هذا القلب الكبير عند الحب الفردى النبيل ، بل امتد وامتد ، الى حب الوطن الأول ، والحنين إليه حنينا لاهبا تشهد به طائفة من قصائده ، مثل « قلعة بعلبك » (٣) و « التأليف بين القلوب » (٤) .

---

(١) ديوان الخليل الجزء الأول ص ١٦٠
(٢) ديوان الخليل الجزء الثانى ص ٢١
(٣) ديوان الخليل الجزء الأول ص ٧٧
(٤) ديوان الخليل الجزء الثانى ص ١٠٧

و « تشوق » (١) وتتحدث به قصائده فى موطنه الثانى مصر فى مثل « يا مصر » (٢) وإلى « حافظ إبراهيم » التى جاء فيها قوله :

« مصر » الحضارة والآثار شاهدة « مصر » السماحة مصر المجد من قدم

« مصر » العزيزة إن جارت وإن عدلت « مصر » الحبيبة إن نرحل وإن نقم

جئنا حماها وعشنا آمنين به متعين كأن العيش فى حلم

واكتمل حب الرجل ، واتسع مجاله فشمل الإنسانية بأسرها ، وآيات بره الإيجابى . تتناقلها الألسن ، وتنطوى عليها قلوب العارفين ، ونجد تفسير هذا الروح الإنسانى النبيل مبثوثا فى كثير من شعره . وبخاصة شعره القصصى الذى فتح به فتحا جديداً فى عالم الشعر الحديث ، فأنا لنراه يتألم لمصير عوادة متسولة تموت مريضة بعد زواجها بعام فى قصيدته البديعة « وفاء » (٣) ونلحظه ينعى على العاهر التى تقتل جنينها ، فى قصته الشهيرة « الجنين الشهيد » (٤) ونسمعه يترحم على الشاب السرى الذى يلقى بنفسه فى الماء لخيبة حبه فى قصته « المنتحر » (٥) ونلمس ثورته على أحد رؤوساء المذاهب الذى أصر على إبطال عقد زواج بين اثنين ، ولو تمت بغيته ، لألحق بولدهما البرىء العار ، وهذه الثورة الهادئة تضمنتها قصته « الطفل الطاهر » (٦) وهى من أروع قصصه الشعرية ، ومما جاء فيها قوله ، مخاطبا الطفل البرىء ، وناعيا على القس العاتى :

(١) ديوان الخليل الجزء الثانى ص ٢٣٨

(٢) ديوان الخليل الجزء الثانى ص ٢٦٦

(٣) ديوان الخليل الجزء الأول ص ٨٤

(٤) ديوان الخليل الجزء الأول ص ١٩٩

(٥) ديوان الجليل الجزء الثانى ص ٥٧

(٦) ديوان الخليل الجزء الأول ص ٢٤٦

ياطفل قلب طرفك المترددا أو ماترى شبحا عبوسا أسودا
متجسسا لك من وراء ستار
هذا أساء إليك قبل المولد وجنى عليك جناية المتعمد
ومن السماء دعاك صوب النار
لكن أراك تبش بشة سامح وأراك ترمقه بعين الصافح
ما للهلال وللسحاب السارى

ولسنا نجد تدليلا على تبيان تأصل فطرة الحب فى قلب هذا الرجل الكبير أقوى وأروع من قصيدته « هل تذكرين » (١) فهذه القصيدة مع حلاوة موسيقاها وجمال صياغتها ، تمد الباحث ، ببعض السمات الأصيلة للخليل ، لأنها تروى بعض ذكرياته ، ومن هذه الذكريات يجد السيكولوجى مصدراً فذا للتعرف على شخصية الرجل ، ورغباته فى الحياة ، فهو يروى فيها تجواله مع إحدى بنات عمه وقريبة أخرى وصاحبة ثالثة ، ولهوهم فى روضة ، وقطفهم العنب منها ، ثم انجذابه إلى الرفيقة الغريبة ، ومحاولته إدخال البهجة على قلبها ، وعمل لعبة من الصلصال لها فى هيئة عصفور ، ومما جاء فى هذا القصيد عن ذكريات حبه الساذج ولهوه البرىء قوله :

هل تذكرين ونحن طفلان عهداً برحلة كله غنم
إذ يلتقى فى الكرم ظلان يتضاحكان ويأنس الكرم
هل تذكرين بلاءنا الحسنا حين اقتطاف أطايب العنب
نعطى ابتسامات بها ثمنا وبنا كنشوتها من الطرب

ثم تساؤله عن النهر فى القصيد ذاته يؤيد حبه لجمال الطبيعة ، واندماجه فيها ، وانه فى ذلك يقول .

---

(١) ديوان الخليل — الجزء الثانى ص ١٣٥ .

والنهر ، هل هو لا يزال كما كنا لذاك العهد نألفه
يسقى الغياض زلاله الشبما ويزيد بهجتها تعطفه
ينصب مصطخبا على الصخر ويسير معتدلا ومنعرجا
يطفى حيال السد أو يجرى متضايقا آنا ومنفرجا
متخللا خضر البساتين متهللا لتحية الشجر
متضاحكا ضحك المجانين لملاعب النسمات والزهر

ثم وصفه لجمال الصاحبة الغريبة وانجذابه اليها ، يعزز فطرة هذا القلب المتيم فى الطفولة ، وفى ذلك يقول :

ما أنس لا أنس العقيق وقد جزناه بعد السيل نفترج
كان الربيع وكان يوم أحد ومسيرنا متمعج زلج
و « نبيهة » الكبرى ترافقنا مجهودة ضجت من التعب
ولها صويحبة ترافقنا حسناء كل الحسن فى أدب
ضحاكة كالنور فى الزهر رقاصة كالغصن فى الوادى
كرارة كنسيمة السحر ثرثارة كالطائر الشادى

ثم يروى بعد هذا أثر سحر الجمال فيه ، وما أوحى اليه من صنع لعبة لحبيبته ، وفى هذا الصنع دلالة مبصرة على استعداده الفطرى لحب الفن والخلق، وفى ذلك يقول :

حسن تملكنى فأدبنى ماشاء فى قولى وفى فعلى
وبمثل لمح الطرف أكسبنى خلقا وعلمنى على جهلى
أوحى إلى ددا أجربه فى آية من فطنة ودد (١)
فجمعت صلصالا أركبه وصنعت عصفوراً لها بيدى

---

(١) الدد : اللعبة .

ولم يتمالك الشاعر أن يطير إعجابا وفرحا بهذه اللعبة التي صنعها على عين حبيبته، فأبدى عجبه بما جبل، وإن لف هذا العجب فى وشاح شفاف من التواضع، قال :

صورت شبه الفرخ فى وكر من غير سبق لى بتصوير
فأتى على ما شاءه فكرى ورضيت عن خلقى وتقديرى
ما كان هذا الفرخ معجزة فتانة الإتقان والحسن
كلا ولم أجعله معجزة (١) لكفاءة الحذاق فى الفن

فهذا القصيد الفريد الذى أطلنا الوقفة عنده، يحمل جملة دلالات على بعض خلال الرجل الأصيله، وهى (١) حبه المتأصل فى صباه (٢) ونزوعه إلى الجمال الطبيعى والإنسانى (٣) وشغفه باسعاد غيره (٤) وإبراز هذا الشغف بطريقة عملية فنية (٥) وعجبه بصنعه، عجبا مقرونا بالتواضع .

* * *

وهناك سمات أصيلة أخرى غير ما ذكرنا نعتقد أنها حكمت شخصية الخليل، وهى الحرية، التى قد تبلغ درجة الثورة، والإقدام الذى قد يصل إلى درجة المجازفة والمغامرة، والإباء الذى نأى به عن مواطن التذلل حتى فى أحلك الساعات، وثبات خلقه، وحيويته الدفاقة . وهذه السمات تجلت فى مراحل حياته، وتلون بها شعره، وبرزت واضحة جلية فى ملامح وجهه .

وأبرز هذه السمات، وأصلها: تحرره، وجرأته، وإباؤه، ولا أدل على تحرره من نفوره من الظلم فى يفوعته، وهجرته بعلبك موطنه الأول إلى باريس، ومساهمته فى حركات البعث الوطنى والقومى، ومناصرته لأعلام الوطنية أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول، ونزعته التجديدية

(١) معجزة : ما يعجز الغير عن الاتيان بمثله .

فى الشعر . هذه كلها من الدلائل الناطقة على روحه المتحررة ، وقصائده الشهيرة «مقتل بزرجمهر» (١) التى نادى فيها بالشورى وكراهية الحكم الفردى و «الطفلة البوبرية» (٢) التى روى فيها ابتهال طفلة صغيرة إلى الله لنصرة أبيها وقومها فى الحرب — و «فتاة الجبل الأسود» (٣) التى روى فيها بطولة المرأة ودفاعها عن وطنها وغيرها من القصائد إلا آيات بينات على أنفته من الظلم ودعوته إلى الحرية .

وأبلغ آية على هذه الطبيعة المتحررة فى رأينا ، قصيدته التى دافع فيها عن حرية الرأى وحمل على قانون المطبوعات فى مصر ، وكان من نتيجة هذا الدفاع أن هدده رئيس وزارة ذاك الزمان بالنفى ، فما كان من الرجل الحر إلا أن أجابه بقصيدته الرائع الموسوم بـ «تهديد بالنفى» (٤) وهو أصدق شاهد على تأصل نزعته الحرة ، وفيه يقول :

أنا لا أخاف ولا أرجى فرسى مؤهبة وسرجى
فاذا نبا بى متن بر فالمطيـــة بطن لج
لا قول غير الحق لى قول وهـذا النهج نهجى
الوعد والإيعاد ما كانا لدى طريق فلج (٥)

وقد صاحبت هذه الروح المتحررة ، نزعتان صديقتان هما الجرأة والإباء وقد انعكس أثرهما فى عمله وفنه ، ويبدو لنا أنه ورثهما من أمه المقدامة الحساسة ، وتجسمتا فى وجنتيه العاليتين . وتنوء عظم الوجنة ، كما يقول المتفرسون المتعمقون آية الجرأة ، بل المجازفة .

(١) ديوان الخليل الجزء الأول صـ ٩٩ .
(٢) ديوان الخليل الجزء الأول صـ ١٣٧ .
(٣) ديوان الخليل الجزء الأول صـ ١٥٤ .
(٤) ديوان الخليل الجزء الثانى صـ ٩
(٥) الفلج : الظفر .

ولا أدل على روحه الجريئة المقدامة من شغفه فى صباه بركوب الخيل والسبق على متونها ، وقد سبب له هذا الشغف ، أن وقع كما يقول الدكتور إسماعيل أدهم (١) مرة من فوق أحد الجياد فتكسرت بعض أضلاعه، وتهشمت أرنبة أنفه، وبقى أثر هذه السقطة فى أنفه طول حياته .

وتجلت شواهد هذه الجرأة فى بعض أعماله ، فلقد اشتغل الرجل بعد ترك أعماله الصحافية بالأعمال الزراعية والتجارية ، وقام بالمضاربات ، فكسب كثيرا وخسر كثيرا ، وقد انتهت به إحدى هذه المضاربات إلى خسارة فادحة ، فتوارى فى أثرها عن الناس ، وأعرب عن حالته النفسية الأليمة بقصيدته الشهيرة الرائعة « الأسد الباكى » (٢) التى جاء فيها قوله :

وكم فى فؤادى من جراح ثخينة   يحجبها بردای عن أعين الناس
إلى عين شمس قد لجأت وحاجتى   طلاقة جو لم يدنس بأرجاس
أسرى همومى بانفرادى آمنا   مكايد واش أو نمائم دساس
يخالون أنى فى متاع حيالها   وأى متاع فى جوار لديماس (٣)

وأروع تصوير لنفسه الحزينة الأبية قوله فى القصيد ذاته :

ذرونى أنكس هامتى غير متق   ملامة رواد وشبهة جواس (٤)
فى حرة بكر ضلوعى سياجها   أراش عليها سهمه معتد قاسى
أعيد إليها كل حين نواظرى   وأخفض من عطف على جرحها راسى

وأبلغ دليل على هذه الجرأة ، هو شعره الجديد الذى وثب به وثبة بعيدة ، لا يقدر عليها إلا موهوب جرىء ، وأيا قلبنا شعره ، وجدنا تجارب

(١) بحث الدكتور اسماعيل أدهم مطران شاعر العربية الابتداعى المقتطف ١٩٣٩ وهو أدق وأوفى بحث عن شعر خليل مطران (٢) ديوان الخليل الجزء الثانى ص ١٧ (٣) الديماس : الحفير من الارض .
(٥) جواس : جمع جائس وهو الطائف فى مكان ما .

شعرية لم يطرقها أحد قبله ، وطلاقة بيانية وأسلوبية ، وتحرراً من عبودية القافية ، لا نعرف شاعراً سبقه اليه ، وشاهد هذا التحرر فى القافية قصيدته البديعة « فنجان قهوة » (١) التى دبجها فى أواخر عام ١٩٠٢ ، وتعد هذه القصيدة فى رأينا آية جرأته الفنية ، والبذرة الأولى فى الشعر المرسل، وقد استهلها بقوله :

البحر ساج والسكينة سائدة　　والليل داج والمدينة راقدة
غمر الظلام هضابها وجبالها　　وقلاعها وصروحها فأزالها
شبه الخبط المستوى وبقاعه　　ما لا يرى من شمه وبقاعه
لا نجم فى الأفق المحجب سافر　　خلل السحاب ولا سراج ساهر
وإذا أصاخ إلى الجهات مطيف　　سمعا فلا ركز يحس خفيف
إلا خطا شبح ضئيل هائم　　كالوهم يسرى فى مخيلة واهم

* * *

ولم تساير الخليل فى مراحل حياته ، وقدات شعوره ، ودفعات جرأته ، بل كبحت البيئة الظالمة وصروف الحياة ، وآلام الرجل وغربته ، خلائقه الفطرية الأولى التى ألمعنا إليها ، فاتكأ كثيراً على نفسه . وقمع انفعالاته وعواطفه الجارفة ، وذلك بقوة عقله وشدة محاسبة ضميره ، وفى هذا يقول الخليل فى حديث له (٢) :

« فى المعاودة وحدها تاريخ تكوين شخصيتى . فقد كان هنا لك عاملان يفعلان فى نفسى : « شدة الحساسية ومحاسبة النفس » وبهذه المحاسبة ، أدخل الخليل عنصراً جديدا على نفسه ، وتمكن من إيجاد التوازن فى شخصيته ، وإن قلل هذا العنصر من حرارة كثير من أعماله الفنية .

(١) ديوان الخليل ــ الجزء الأول ١٢٣　(٢) هامش صفحة ٦٤ الدكتور إسماعيل أدهم ــ فى كتابه « مطران شاعر العربية الابتداعى » .

وآثار هـذه الحماسة نجدها فى بعض قصائده الوطنية التى كان يرمى من ورائها إلى إشعال الروح الوطنى ، وإن رمز ولم يصرح بهدفه وستر ولم يكشف ، وشاهد ذلك ، قصيدته « شيخ أثينا » (١) وهى نذير إلى أهل أثينـا الأذلاء لمقاومة استعمار الرومانيين الغاشم ، وقد اتخذ — كما يقول الأستاذ العزيزى (٢) « شيخ أثينة » ينفث فى كل بيت من أبياته روحه المتألمة لذل قومه ، كما اتخذ من قصيدة « مقتل بزر جمهر » السابق التنويه بها أداة لإبراز جبروت السلطان عبد الحميد ، عندما شاهد أحرار العرب يقتلون ، وشاهد السلطان عبد الحميـد لا يرعى لهم إلا ولا ذمة ، لأنهم قد ارتضوا العبودية ، وسكتوا عن مظالمه ، ومما جاء فى هذا القصيد قوله :

فلأنت كسرى ما ترى تحريمه   كان الحرام وما تحل حلالا
وليذكرن الدهر عدلك باهراً   ولتحمدن خلائقا وفعالا
لو كان فى تلك النعاج مقاوم   لك لم تجىء ما جئته استفحالا

فالعهد الاستبدادى المظلم الذى عاصره ، وشهد فيه أشلاء المنقوم عليهم يثقلها الحديد وتطارح فى أعماق البسفور ، ورأى قلم المراقبة التركية ينهال على الصحف . فتقفر حقولها وتغل أعناقها ، علمته هذه الأحداث المخيفة ، أن يكون ناقما يكظم نقمته ، وثائرا يجتر ثورته (٣) .

وتشهد قصائد كثيرة أخرى بتغلب عقله على عاطفته ، وهذه القصائد قد نعجب بها ، ولكنها لا تضرب بأوتارها فى قلوبنا ، وهذا ما نلمسه فى بعض قصائده الوجدانية مثل قصيدته « العالم الصغير مرآة العالم الكبير (٤) »

(١) ديوان الخليل الجزء الأول ص ٢٦٤ .

(٢) المجلة الجديدة مايو ١٩٣٧ العدد الخامس من السنة السادسة مقال الاستاذ روكس بن زايد العزيزى بعنوان « خليل مطران وشعره » .

(٣) المرجع السابق (٤) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٢٩ — وكتابنا « الشعر المعاصر » ص ٧٢ .

التى تحدث فيها إلى إحدى حبيباته ، ولكنه مال عن مناجاتها إلى فلسفة ما حوله من احياء السكون ، وقد استهلها بقوله :

أرأيت صوغ الدر فى العقيان هذا حباب البن فى الفنجان
فلك يمثل شمسه ونجومه أفلاكنا فى السير والدوران
ليلى أجيل الطرف فيه تنظرى سر الكيان وآية الأزمان
تجدى سماوات وسمن عوالما فتانة الإبداع والإتقان

* * *

فهذا التمقل الذى ساد أكثر حياته ولون شعره ، هو ثمرة من ثمرات حياته الخاصة وضغط المجتمع الذى عاش فيه ، فاضطره إلى مجاملة الناس فى أفراحهم وأتراحهم ، ولهذا زخر شعره بالمديح والرثاء والتهانى فى حفلات الزفاف ، وقد كان أكثر هذا الشعر متكلفا لأنه لم يصدر فيه عن طبيعة أصيلة ، ولم يخف الخليل هذه الأغراض التى طرأت على فطرته الأولى ، بل عبر عنها فى قصيد له مرفوع إلى ناشر الديوان ، ضمنه مجاملته الناس فى الرخاء والبأساء ، واغتفاره زلاتهم ، وجرياته ، كما يقول على حكم النهى ، دون مغالبة القدر (١) ويقول لإنصاف : ان الخليل ، وان هادن فى بعض الأحيان فانه لم يهادن مرة على حساب الحق والضمير ، كما كان يفعل أدباء جيله ، بل استمسك بالحق دائما ، ولم يتقلب مرة أو يتذبذب ، وهذه فضيلة يذكرها له الجيل الحاضر الصاعد .

ونعتقد أن « العزيزى » فى مقاله خليل مطران وشعره (٢) ، الذى دبجه فى المجلة الجديدة عام ١٩٣٧ ، لم يكن موفقا فى الحملة على الخليل لمجاملته الناس

---

(١) ديوان الخليل الجزء الأول ص ٢٩٢ (٢) المجلة الجديدة « خليل مطران وشعره » للاستاذ روكس زايد العزيزى — (شرق الأردن) مايو ١٩٣٧ العدد الخامس من السنة السادسة .

لأن هذه المجاملة ، ليست ملقا كما ادعى ، إنما هي نزول على اعتبارات اجتماعية ، ما كان لمثل قلبه الكريم الطيب ، أن يزورعنها ، أو يتحلل منها .

ونحسب أن ماجاء فى شعره فى الأغراض السالفة الذكر ، لا تمثل حقيقته النفسية الأصيلة وإنما الذى يمثل هذه الحقيقة ، هو شعره الوجدانى الخالص ، وهو فى اعتقادنا شعره الخالد ، هو هذا الشعر الذى نبع من شعوره الدفاق معبراً فيه عن خليقة أصيلة فيه مثل عاطفة الحب وشاهدها قصيدته « هل تذكرين » التى حللناها سابقا ، أو معبراً عن انفعال الألم واليأس فى مثل قصيدته « الأسد الباكى » التى أسلفنا على ذكرها ، أو معبراً عن انفعالات نفسية وعواطف منوعة ، كما فى رائعته الباقية « المساء » (١) التى تحدث فيها عن حبه ، وآلام نفسه ، وجلال أحياء الكون حوله وقد لف خواطره فى وحدة كاملة ، ومما جاء فى هذا القصيد قوله :

متفرد بصبابتى متفرد بكآبتى متفرد بعنائى
شاك إلى البحر اضطراب خواطرى فيجيبنى برياحه الهوجاء
ثاو على صخر أصم وليت لى قلبا كهذى الصخرة الصماء
والبحر خفاق الجوانب ضائق كمداً كصدرى ساعة الإمساء
والأفق معتكر قريح جفنه يغضى على الغمرات والأقذاء

وقوله فى الفقرة الثانية :

ياللغروب وما به من عبرة للمستهام وعبرة للرائى
أو ليس نزعا للنهار وصرعة للشمس بين جنازة الأضواء
أو ليس طمسا لليقين ومبعثا للشك بين غلائل الظلماء
أو ليس محواً للوجود إلى مدى وإبادة لمعالم الأشياء
حتى يكون النور تجديداً لها ويكون شبه البعث عود ذكاء (٢)

---

(١) ديوان الخليل — الجزء الأول ص ١١٩ . (٢) ذكاء : الشمس .

فهذا القصيد ، يعبر تعبيراً صادقا عن حالة الرجل النفسية ، وهو يمدنا بمادة صالحة لنعرف شخصيته ، فهو يكشف بادى الرأى عن حبه المتاصل لحبيبته ، ولهفته لجمال الطبيعة ويبين لنا قواه التفكيرية وخياله الخصب ، وتمازج هذه القوى بقواه الشعورية ، وفضلا عن ذلك فانه يلق للسيكولوجى ضوءا على طابع شخصية الرجل ، فالفقرة الأولى التى أتينا بها قريبا هى تعبير ذاتى عن آلام الرجل والفقرة الثانية ، هى تعبير موضوعى عن الغروب وما يلابسه من خاطرات ومن ها بين الفقرتين ، يمكن القول بان الخليل ، حتى فى قطعه الوجدانية الذاتية ، يترك التعبير عن نفسه إلى التعبير عن الدنيا الخارجة ، فهو فى التعبير الذاتى يمثل الانطوائية ، وفى التعبير الموضوعى يمثل الانبساطية ، وفى الجمع بينهما فى قصيد واحد يمثل الطابع المتوسط بينهما (١) .

فهو يجمع حظا من صفات الانطوائى ، وقسطا من صفات الانبساطى . حتى ليتعذر الحكم أى صفات هذين الطابعين تغلب عليه ، ومن صفات الطابع الأول ميله للتامل ، والتفكير ومقدرته الأدبية ومثاليته ، وحبه للعزلة ، ومن دلائل ذلك قصيدته الطويلة عيد الميلاد (٢) التى بلغت الأربعين بعد المائة بيت ، وفيها يقول :

أحبب بكل عزلة يأوى إليها الرجل
وإن تكن كحجرتى لا شىء فيها يجمل
فى هـذه الغرفة أخـلو للمعانى خلوتى
أسكبها فى عبرات مرة أو حـلوة
هنـاك الاستقلال فى أسمى معانى الـكلمة

---

(١) كتابنا « الشعر المعاصر » ص ٧٣

(٢) ديوان الخليل الجزء الثانى ص ٢٤٦ إلى ص ٢٥٥

لا يتهم الإنسان عينيه ولا يخشى فمه
أستنزل الوحى لنفع الناس إن يسرلى
وأمنح العذر بلا ضن وأكفى عذلى
هناك أتقى الله بل أتقى ضميرى آمنا
وليس كل ساكن بيتا يبيت ساكنا (١)

وقد برزت نزعته الانبساطية فى صور عملية شتى من البر والمؤاساة، وحب الاجتماع وحب العمل، والتساوق مع الدنيا المتغيرة، وشواهد هذه النزعة فى شعره ملموسة فى كثير من الموضوعات العامة التى تناولها تناولا عاما مقترنا بالفلسفة الخفيفة، وفى تصويره الأشياء والشخوص تصويراً واقعيا، وشعره زاخر بالآيات الشاهدة على هذا الاتجاه، ونكتفى هنا بإيراد بعض ماجاء فى قصيدة «السيدة التاجرة» مثالا على طرقه الموضوعات العامة، وتحبيذه الإقدام على العمل، ووصفه لسيدة غنية مهنت التجارة وصفا واقعيا مقترنا بلمحات الجمال، يقول:

أتاجرة النفائس والغوالى من الطرف المصوغة والحرير
لأنت عجيبة بين الغوانى كعصرك بين خالية العصور؟
وهل عجب كحانوت غدونا نراه مطلع القمر المنير؟

ثم يقول:

ألا يابنت عصر مالحى به خطر بلا عمل خطير
حطمت القيد فيه ولم تراعى سوى قيد الفضيلة فى المسير
ورمت من الحياة مرام عز يشق على العصامى القدير
نعم وأبيك ما للطهر حصن سوى خفر الشمائل والضمير
وأى رام بين الناس مجدا فليس يعيبه غير القصور (٢)

---

(١) ديوان الخليل ــ الجزء الثانى صـ ١٧٣
(٢) القصور: العجز

وواضح من هذا أن شخصية الخليل كانت مركبة ، ماجت بين الانطوائية والانبساطية ، وعاشت فى جو المثالية ودنيا الواقعية ، وفى جو المثالية أصابت الإلهامات الخلاقة ، وعبت من نبع الجمال ، وفى دنيا الواقعية ، جدت وجاهدت ، ودانت بعبادة العمل ، ولكنها لم تتلوث بأوضار الحياة .

أجل ، إنها شخصية فطرت كما أسلفنا على الحرية والجرأة ، وهامت بالحب والجمال ، كما أنها تحصنت بالذكاء والقدرة الفكرية ، وقوة التخيل ، وتصارعت فى جوانبها القوة الشعورية الدفاقة ، مع القوة الفكرية فتغلبت الأولى حينا ، وتغلبت الثانية أحيانا ، وتوازنت القوتان فى أغلب الأحايين ، ومصداق هذا نجده فى شعره المتوشح بالبساطة حينا وشعره الذى سيطر عليه العقل أحيانا وشعره الجامع بين العاطفة والخيال والفكر جمعا متناسبا فى أغلب الأحايين ـ والظاهرة الجثمانية تعزز هذا، فالوجنتان العاليتان الجريئتان يخفف من عنفوانهما جبهته العريضة المفكرة ، وعيناه اللامعتان الذكيتان ، وفمه المنطبق الحازم وذقنه المربعة القوية التصميم ، ولو شئنا الاستدلال بملامح الوجه على الغدة الصماء التى كانت تحكم شخصية هذا الرجل ، لاستطعنا القول ، بان ذقنه المربعة . وحاجبيه كثى الشعر ووجهه الحاد ، وجمجمة رأسه الطويلة . هى من علائم سيطرة الغدة النخامية ، وهى غدة التجلد كما يقول لويس برج فى كتابه « الشخصية الإنسانية وهى الغدة الضابطه القائدة للنفس كما يقول آخرون .

وإذا تركنا هذه الدلالات على تركب شخصية الرجل ، وألقينا نظرة على أعماله فى مراحل حياته ، ألفينا ما يؤيد صحة رأينا تأييداً قويا . فقد نجم الرجل فى بعلبك البلد العريق حضارة وتلقى العلم على العلامة

« إبراهيم اليازجي » ، وهو حجة فى اللغة والأدب وكان أثره فيه كبيراً وتملى جمال بلاده ، هذا الجمال المركب المتنوع ، حيث الجبال الشم ، والبحر الجياش والأرز الصلب الدائم الخضرة ، ونفر إلى باريس ، لجمع إلى الثقافة العربية ثقافة غربية ، وينهل من نبع أدباء الخيال ، أمثال الفردد دى موسيه وهيجو ، كما أغرم بأدباء الكلاسيك ، أمثال راسين وكورنى ، وفى عودته إلى مصر وطنه الثانى ، مهن الصحافة وأسهم فى تحرير الاهرام ، واللواء ، والمؤيد ، وظهر نبوغه الأدبى فى تحرير المجلة المصرية والجوائب ، وخلف بهجرة الصحافة تراثا من الشرف والكرامة والأدب الرفيع ، وتحول إلى الحياة العاملة ، فاشتغل بالمسائل التجارية والاقتصادية ، وانتهى به المطاف إلى العمل بالجمعية الزراعية الملكية ، حيث اشتغل بمسائل الاقتصاد والحساب الجافة وصبر عليها ، ووفق فيها كل التوفيق كما اختير مديراً لإدارة الفرقة القومية وفى أثناء جهاده فى سبيل رزقه ، تمكن الرجل من إغناء الأدب العربى ، بشعره الفريد ، ونثره الرصين ، وترجماته الضليعة ، التى ماجت بين ترجمة عيون أعمال الأدباء الرومانتيك ، والكلاسيك ، فقد ترجم ليالى الفرد دى موسيه ورواية هرنانى لفيكتور هيجو ، كما ترجم لكورنى مسرحيات « السيد » وسينا وبوليكت وترجم لراسين بعض رواياته وانتقل إلى المسرحية الانجليزية العالمية ، فاهتم بترجمة روايات شكسبير الخالدة ، هاملت ، وماكبث وعطيل . وتاجر البندقية ، والملك لير ، ولم يقف عند ترجمة هذه الأعمال الأدبية البحت ، بل تعددت نواحيه فاهتم بنقـل الثقافة الاقتصادية والسيكولوجية ، فترجم كتابا فى الاقتصاد السياسى ، وكتاب « تعليم الإرادة » لبايو وكتابا فى التاريخ الطبيعى لفيكتور ديرى وكانت هذه الترجمات ـ كما يقول الأستاذ زكى طليمات ـ لامثيل لها من حيث سلامة العبارة

وقوة الأسلوب ، ووضوح المعانى (١) وفضلا عن هذه الترجمات فقد ألف كتاب « مرآه الأيام » .

وهذه المجهودات الأدبية الجبارة هى شهادة بالغة على عقلية الرجل المركبة وحيويته الدفاقة وعلى إيمانه بالعمل الذى ترنم بمجده بعد سن الأربعين بسنتين فى إحدى قصائده اللطيفة إذ قال :

يظل المرء فى دنيا ه من شغل إلى شغل
يجد منى ويخلقها على الأعوام كالحلل
ومن سنة إلى سنة يعاودها بلا ملل
فن أمل إلى يأس ومن يأس إلى أمل
ولا سعد ولا سلوى ولا مجد سوى العمل (٢)

* * *

والحق أن الخليل مع تمثيله عصره خير تمثيل ، قد سما على دنياه ، وبز معاصريه من الأدباء فى ثبات خلقه ، وكرم نفسه ، وتفانيه فى خير الناس ، وكانت شخصيته مزاجا فريداً من المثالية المحلقة فى الخيال ، ومن الواقعية المؤمنة بالجهاد وحب العمل فى الحياة ، فقد كان الرجل يسير بقدمين ثابتتين على الأرض ، ورأسه يطوف فى السماء ، وقد عاش فى سمائه شاعراً جريئا مبتكراً ، وعاش على الأرض ، رجل دنيا ، كما يقولون ، يشاطر الناس أفراحهم وأتراحهم ويعطف على بائسيهم وفقرائهم ، وينقم من حكامهم الظالمين المتغطرسين ، وينادى بالشورى وحكم الدستور ، وهو لم يحمل على طبقة من الطبقات ، بل أحب كل طبقة ، وإذا قرع فى شعره الشعب لاستكانته

(١) الكتاب الذهبى ، لمهرجان خليل مطران ١٩٤٧ ص ٦٣ .
(٢) قصيدة (تحية عام ١٩١٣) — ديوان الخليل الجزء الثانى ص ١٠١ .

للظلم فهو تقريع المحب الوامق إلى إسعاده ـ وأما مسالمته ومصافاته لكبار الرجال وذوى الجاه ، والأغنياء ، فراجع إلى حذره وحبه فى كسب قلب كل طبقة .

وقد عبر شعره عن حياته وعن نفسيته تعبيراً صادقا ، فهو شاعر رومانتى يهيم بالحب هياما ، ويشغف بالجمال شغفا كبيراً ، وتبدع ريشته فى مجالى الألم أيما إبداع ، وقصيدته الوجدانية « مثال فى مرآة » (١) مثال للرومانتيكية المبدعة ، موضوعا وأسلوبا لأنه أعرب فيها عن ألمه الحازب لموت حبيبته وبكائه عليها ، وإنه ليقول فى طلاقة أسلوبية ، وموسيقى مشجية :

كنا كغصنى دوحة نبتا بل زهرتى غصن تعانقتا
بل حبتين بزهرة نمتا وتساقتا لما تعاشقتا
نار الغرام مع الندى العذب
تمت سعادتنا على قدر فسطت عليها غيرة القدر
أودت معا بالعين والأثر واستبقت الباقى من الخبر
ذكرى وتبصرة لذى لب

ثم يقول : ماتت وكل ضاحك جذل ما للورى ولموت من جهلوا
لا قلب يبكيها ولا مقل بل نبلها واللطف والأمل
وشبابها وطهارة القلب
ماتت ونور الفجر مرتسم فى الماء فهو أغر مبتسم
والروض زاه بالندى شبم والطير تصدح فيه والنسم
والزهر والأغصان فى لعب

ومن أروع قصائده الرومانتيكية التى يصف فيها ألمه فى مرضه قصيدة

(١) ديوان الخليل ـ الجزء الأول ص١٨٢ .

« الأثر الباقى » (١) وهى فى الحق من آثاره الخالدة ، وقد جاء فيها قوله :

الله فى صدر وهى وتقوست منه العظام
خاو كجوف الغار تملأه المخاوف والظلام
إلا سراجا حائلا فيه ينير بلا ابتسام
روح تضىء على ضريح فى صميم القلب قام
تحنو عليه كأنه مهد لطفل فيه نام

ومثل هذه اللوعة نجدها فى شعره الوطنى ، وأبدع ما وقعنا عليه مثالا لوجده وألمه ، وتصويره أبناء بيروت الذين حصدهم الطليان بمدافعهم فى عام ١٩١٢ قصيدته « إعانة بيروت » (٢) التى قال فيها :

بلادى لا يزال هواك منى كما كان الهوى قبل الفطام
أقبل منك حيث رمى الأعادى رغاما طاهراً دون الرغام
وأفدى كل جلمود فتيت وهى بقنابل القوم اللئام
فكيف الشبل مختبطا صريعا على الغبراء مهشوم العظام
وكيف الطفل لم يقتل لذنب وذات الخدر لم تهتك لذام

ومع رومانتيكيته السليمة والممتزجة بالواقع ، فلم يخل شعر الخليل من بذرات الواقعية ، ونلمس ذلك فى شعره القصصى ، وشعره الإجتماعى وشعره الشعبى الذى كان يقرع فيه الشعب لاستنامته على أعمال الغاصب ، وعلى عسف الحاكم ، فى أسلوب موضوعى ، وأجل ما وقعنا عليه فى هذه الناحية مقطوعته « دمعة على الشام » (٣) فى أيام الطاغية جمال ، وقد جرت فى

(١) ديوان الخليل — الجزء الأول ص ١٨٨ .
(٢) ديوان الخليل — الجزء الثانى ص ١٢١ .
(٣) من أقوال شاعر مصر — حافظ إبراهيم — كتاب السندوبى (الشعراء الثلاثة).

أسلوب واقعى ، تجرد من الذاتية ، وفيها يقول :

يرقى الذرى ويعيش مغتبطاً   شعب على أعدائه خشن
شعب يحب بلاده فاذا   هانت فما لبقائه ثمن
تبكى العيون « الشام » راسفة   فى القيد محدقة بها المحن
أتعز أمصار بفتيتها   وتهون تلك بهم وتمتهن
أشقى اليتامى فى مرابعه   شعب يعيش وما له وطن

* * *

هذه إلمامة عاجلة عن شخصية الرجل الحر الجرىء الذى فقدته البلاد العربية ، الرجل ذى البديهة التى كانت تغلى كالمرجل ، والخاطر الذى ينهل كالمطر ، الرجل الذى حاولت أحداث الحياة ونوازلها أن تخمد من شعوره الوثاب ، وتطفىء من عزيمته الوقادة ، فبقيت مشاعره وعزيمته كالجمرات المتقدة وإن غطتها ذرات الرماد ، الرجل الذى عاش عاكفاً على محراب أبولو وسادنا من سدنة الشعر المبتكر الجديد ، فأوسع صدر العربية للخيال الخلاق وأفسح فيه للقصص والتصوير (١) وعلم جيلا من الأدباء معنى الشخصية الأدبية ، والطلاقة الفنية ووحدة القصيد ، فتأثرت به كوكبة من الموهوبين أمثال خليل شيبوب ، والدكتور أحمد زكى أبو شادى ، والدكتور ناجى وإيليا أبو ماضى ، وإلياس فرحات ، وعمر أبو ريشة وغيرهم كثيرون ، تأثروا به تأثراً موضوعيا أوفنيا أو توجيهيا ، فتركت روحانية هذا المعلم الجبار وقوته الفنية فى نفوسهم أبعد الآثار ، وما قام به هؤلاء الأفذاذ من تجديد ، وما تناولوه من موضوعات ، إلا الرقى الطبيعى لرسالة

(١) من اقوال شاعر مصر،حافظ إبراهيم — عن كتاب السندوبى : « الشعراء الثلاثة صـ ٢٥٤ » .

الخليل (١) وفى ذلك يقول الدكتور أبو شادى فى آخر ديوانه « أنداء الفجر » .

« عرفت محبة هذا الرجل الإنسانى وأستاذيته منذ ثلاثين سنة ، إذ تعهدنى صغيراً وبقيت أهتدى بهديه ، وأثره فى شعرى أثر عميق لأنه يرجع إلى طفولتى الأدبية ، ويصاحبنى فى جميع أدوار حياتى ، وإذا كان استقلالى الأدبى ، متجليا الآن فى أعمالى ، فهو فى الوقت ذاته ، يمثل الاطراد الطبيعى للتعاليم الفنية التى تشربتها نفسى الصبية من ذلك الأستاذ المعظم ، وما زالت تحرص عليها نفسى الكهلة الوفية ، ناظرة إلى آثار الصبا وإلى معلمى الأول بحنان عميق . . . . » (٢) .

وها نحن أولاء نورد هنا كلمة مفصلة عن مطران الشاعر الوطنى الحر وعن الحرية فى شعره ، وهى ناحية من النواحى الموضوعية التى تخلد شعره

---

(١) مقال فى آخر ديوان له أنداء الفجر — للدكتور أبو شادى بعنوان « مطران وأثره فى شعرى » من ص ١١٠ — ١٢٨ الطبعة الثانية — يوليو ١٩٣٤

(٢) ديوان أنداء الفجر — ص ١٢٨ .

الحرية فى شعر مطران

— ١ —

تأثر الرعيل الأول من الشعراء العرب بالحركات الوطنية التحررية التى بزغت أضواؤها فى أواخر القرن التاسع عشر وفجر القرن العشرين ، وكان من بين هؤلاء الشعراء سامى البارودى ومطران وشوقى وحافظ ومحرم ، وكوكبة أخرى من الشعراء .

ودار شعر هؤلاء حول الإشادة بالوطن ومشاهده وآثاره ، كما تناول أحداثه السياسية الكبيرة ، والتغنى بحريته ، والدعوة إلى حكم الشورى والدستور ، وتمجيد الوطنيين المجاهدين .

داروا جميعا فى هذا المجال دون استثناء ، وإن اختلفوا فى مفهوم الوطنية : فنهم من خلطها بالدين ومنهم وهم قلال ، من تغنى بها مجردة من كل اعتبار .

وقد كان مطران على رأس من أدرك المفهوم الوطنى الصحيح ، وبز القرناء فى مناصرته قضايا الحرية فى البلاد العربية . وتفرد بالحملة على حكم الملوك الطغاة والحكام الجائرين .

فعلى حين كان شوقى وحافظ فى شبابهما يترنمان بآلاء السلطان عبدالحميد كخليفة للمسلمين ، كان مطران يحمل عليه فى طراوة العمر ، وعلى جوره واستبداده وعذر شوقى وحافظ أن مصر كانت تخالف الشام فى الاتجاه السياسى فى ذياك الحين .

حمل مطران على هذا الخليفة المستبد حملات شعواء ، أثمرت له ولأسرته المتاعب ، وكان من آثارها أن رصد له الحكام الرقباء فى وطنه الأول

لبنان ليقتلوه ليلا ، فصوبوا على مخدعه الرصاص من النافذة ، وشاء الحظ السعيد أن يكون مطران غائبا عن داره فى هذه الليلة .

وإزاء هذا الاضطهاد ، اضطر أهله أن يرسلوه إلى باريس ، ولكنه ماكاد يستقر هناك حتى اتصل بجماعة « تركيا الفتاة » التى كانت تجاهر بعداء عبدالحميد . فماد الرقباء يرصدون حركاته وسكناته ، مما اضطره إلى اللجوء إلى مصر وقد كانت شبه مستقلة عن تركيا بمعاهدة عام ١٨٤٠ .

— ٢ —

وفى جنبات النيل غنى مطران على مزهر الحرية غناء شجيا نابعا من قلبه الحر الكبير . فاذا به يصرخ صرخته الذكية فى وجه الحكام المستبدين فى أوائل القرن العشرين فيقول :

شردوا أخيارها بحراً وبراً ... واقتلوا أحرارها حرًا فحرا
إنما الصالح يبقى صالحا ... آخر الدهر ويبقى الشر شراً
كسروا الأقلام ، هل تكسيرها ... يمنع الأيدى أن تنقش صخرا ؟
قطعوا الأيدى ، هل تقطيعها ... يمنع الأعين أن تنظر شزرا ؟
أطفئوا الأعين ، هل إطفاؤها ... يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا ؟

وتثور النقمة عليه من جراء هذه القصيدة ، ويستدعيه رئيس وزراء ذلك الحين ، ويتوعده بالنفى فيخرج الخليل من لدنه ساخطا ، وتنفث يراعته المقطوعة المتحركة الأبية الغالية :

أنا لا أخاف ولا أرجى ... فرسى مؤهبة وسرجى
فاذا نبا بى متن بر « م » ... فالمنيـــة بطن لج
لا قول غير الحق لى ... قول وهـذا النهج نهجى
والوعد والإيعاد ما ... كانا لدى طريق فلج

ويمضى على هذا الحادث أربع سنوات ويعلن الدستور العثمانى فيحييه فى عام ١٩٠٨ بنشيده الموسوم « تحية الحرية » ومما جاء فيه قوله :

حييت خير تحيه يا أخت شمس البرية
حييت ياحريه

وفى عام ١٩٠٩ يضع أول نشيد غير رسمى لمصر أنهاه بقوله :

يا أباة الضيم طاب السير تحت العلم
فانفروا للذود لا تخشوا عدوا إن عدا
لا يثبطكم خئون واعدا أو موعدا
لتعش مصر وتسعد ببنيها أمدا
وعليها المال وقف ، ولها النفس فدى .

— ٣ —

وعلى هذه الوتيرة كان مطران يغنى للحرية ، ويحمل على الملوك الطغاة فى جهر أو تلمح لإثارة العزائم والهمم لكفاح الظلم والظالمين . فحمل على ظلم الإنجليز لأهل البوير فى قصيدته الإنسانية الحرة « الطفلة البوبرية » ، وقص فيها قصة طفلة بوبرية فاتنة رأت أباها يجثو ليلا عند فراشها باكيا ، وأبصرت أمها عابسة محمرة الوجنتين ، وسمعت فى الغد أن قوما أقبلوا لقتال قومها ، لا رحمة لديهم على صغير ، ولا رقة فى قلوبهم على كبير ، وأن أباها انطلق إلى مجاهدتهم ، فراعها الخبر ، وتولاها الأسى ، وعندما حل المساء ، جثت على مهدها داعية ربها أن ينصر أباها وقومها ، وفى ذلك يقول مطران :

حتى إذا ما المساء أمسى وانسدل الليل كالستار
جثت على مهدها بما لم تعهد عليه من الوقار
شبه ملاك أغر باك عليه سيماء الانكسار

تدعو وما لقنت .ولكن علمها الحزن الابتكار
يا أرحم الراحمين يأس يحمي ضعيفا به استجار
انصر أبي ، وانتقم لقومي ولا تبح هـــذه الديار

* * *

ويطالعنا فى مطولته الرائعة « فتاة الجبل الأسود » بالإشادة بوطنية فتاة شاركت بني وطنها فى مجاهدة الأتراك ذياداً عن استقلال بلادها ، فتزيت زي الفرسان ، وهاجمت كوكبة من الأتراك كانت تحتمي بمدفع ، فأفرغت عليها رصاصها ، وانبرت بسيفها فقتلت أربعة ، حتى وقعت أسيرة ، وأمر القائد بقتلها فى الغد ، وتبين الجند أنها فتاة عندما آنسوا صدرها وهي تخلع ثيابها ، فانبأوا القائد بأمرها وساقوها إليه ، ووقفت فى حضرته غير هيابة ، وفاهت بعبارات البطولة ، فأعجب القائد بها أيما إعجاب :

وفى ذلك يقول مطران :

فأصغى الأمير إلى قولها ولم يستفز ولم يحقـــد
وأعظم نفس الفتاة وبأسا بها فى الصناديد لم يعهد
وقال : انقلوها إلى مضرب يعدها به أمهر العود
وقال لمن حوله معجبا : لها الله من أسد أصيد
ومن حرة لن تكون ولن يكون بنوها من الأعبد
فما بلد تفتديه النساء كهـذا الفداء بمستعبـد

— ٤ —

أما قصائده التى أضمر فيها ولم يصرح ، ورمز ولم يلمح ، فكثيرة ، نذكر منها قصائد « نيرون » و « مقتل بزرجمهر » .

وقصيدته « نيرون » استوحاها الشاعر من التاريخ وأفرغ فيها موجدته على

حكم الطغاة المستبدين، وضمنها سيماء ذلك العاتى الرومانى وسيرته ، وما أتى من المنكرات بقتل أمه التى أحلته على عرش رومة ، وحرق رومة وهو يغنى على مزهره ، واتهام النصارى ظلما بحرقها وإلقائهم إلى الوحوش الضارية . وسخر فيها مطران ما شاء أن يسخر من خنوع الرومان لأباطرتهم وبخاصة أشرافهم الذين ارتضوا من الأمبراطور كليجولا أن يرأس عليهم حصانه العجوز، وقد تناول مطران هذه القصيدة تناولا فصيحا وملأها بالألفاظ الغريبة ، حتى ليحسب قارئها أنها معلقة جاهلية. وإنه ليصف ـ نيرون ـ الطاغية فيقول :

أى شىء كان نيرون الذى ... عبدوه ؟ كان فظ الطبع غرا
بارز الصدغين رهلا بادنا ... ليس بالأتلع (١) يمشى مسبطرا
خائب الهمة خوار الحشا ... إن يواقف لحظة باللحظ فرا
قزمة هم نصبوه عاليا ... وجثوا بين يديه فاشمخرا
ضخموه وأطابوا فيئه ... فرأى يملأ الآفاق لجرا
مد فى الآفاق ظلا جائلا ... هو ظل الموت أو أعدى وأضرى

* * *

أما قصيدته « مقتل بزرجمهر » فهى من روائع الشعر الحديث وفيها يندد بكسرى الذى قتل الوزير والفيلسوف بزرجمهر لنصيحة لم ترق له ، وفى يوم مقتله أتى جمع غفير يشهد هذا المنظر الفاجع ، وليس فيهم من شجاع يستنكر ، ولا شفيع يرد العدوان ، وفى هذه القصيدة يقول :

كسرى : أتبق كل قدم غاشم ... حيا وتردى العادل المفضالا
وتدق فى مرأى الرعية عنقه ... ليموت موت المجرمين مذالا
أين التفرد من مشورة صادق ... والحكم أعدل ما يكون جدالا

(١) الأتلع : ذو العنق الطويل.

إن تستطع فاشرب من الدم خمرة ... واجعل جماجم عابديك نعالا
واذبح ودمر واستبح أعراضهم ... واملأ بلادهم أسى ونكالا
فلأنت كسرى ما ترى تحريمه ... كان الحرم وما تحل حلالا

وينتقل مطران إلى مشهد رائع يكشف فيه عن بطولة ابنة الوزير التي آلمها جبروت كسرى، واستخذاء الخائفين به، والمشاهدين للمأساة، فتبرز من بين الصفوف خالعة نقابها، وكان هذا محظوراً، ويرسل كسرى رسوله يسائلها عن سبب سفورها، فتجيب في تهكم وتحد: بأنها فعلت ذلك لأنها لم تجد بين قومها رجالا، وفي ذلك يقول مطران على لسان رسول كسرى:

مولاي يعجب كيف لم تتقنعي ... قالت له: أتعجبا وسؤالا
انظر وقد قتل الحكيم فهل ترى ... إلا رسوما حوله وظلالا
فارجع إلى الملك العظيم وقل له: ... مات الصحيح وعشت أنعم بالا
وبقيت وحدك بعده رجلا فسد ... وارع النساء ودبر الأطفالا
ما كانت الحسناء ترفع سترها ... لو أن في هذي الجموع رجالا!

* * *

ولم يقف مطران عند وقائع التاريخ يستخرج منها ما يؤيد نزوعه إلى التحرر، بل إنه كان يتلقف من صميم الواقع ما يؤيده، ومن ذلك قصيدته في اللبن والدم، وهي حادثة واقعية حدثت بين أحد الأمراء وإمام من أئمة الأزهر القدامى الأحرار ذلك أن الأمير دعا هذا الإمام إلى مائدته، فاعتذر عن تناول الطعام معه لمرضه والحقيقة أنه كان محزونا من سوء سيرته، وأصر الأمير على الاشتراك، ولكن الإمام ذكر أنه لا يتناول إلا اللبن بأمر الطبيب، وأتى الخدم له باللبن فما كاد يقربه حتى انقلب لونه أحمر كالدم، وارتاع الأمير، وابتغى تعليلا لما حدث، فأجاب الإمام في سهوم واستنكار

بأن هذا نذير من نذر الله ، لما اقترف الأمير من آثام ، وفى ذلك يقول مطران :

هذا نذير لا شفـاعة بعـده — عند المهيمن أن تصر وتظلم
هدمت فى طول البلاد وعرضها — أعلامها الحكماء كل مهدم
أسرفت فى هذى الديار مهانة — لكريمها ومعـزة للمجرم

وقصة احمرار اللبن سواء أكانت صحيحة أم من نسج الخيال ، يكفى فيها أن حديث الإمام للأمير وزجره عن الإثم هما من الحقائق المتواترة عن خلائق بعض أعلام الأزهر الأحرار الأباة .

— ٥ —

وإلى تفرد مطران بالتنديد بالملوك والحكام الطغاة ، نرى تفرده بالإشادة بالعروبة ، والدعوة إلى مجاهدة المستعمر فى كل مكان ، فلم يقف حبه على وطنه الأول لبنان ، ولا على مصر وطنه المختار ، بل امتد حبه إلى جميع البلاد العربية فاستحثها على مناهضة الأجنبي الغريب لتخلص لها قوميتها ويعود إليها مجدها السليب ، وفى ذلك يقول :

داع إلى العهد الجديد دعاك — فاستأنفى فى الخافقين علاك
يا أمة العرب التى هى أمنا — أى الفخار نميته ونماك
يمضى الزمان وتنقضى أحداثه — وهواك منا فى القلوب هواك

ويخص بالدعوة إلى الجهاد حملة الأقلام والشعراء ، فيصرخ فيهم فى قصيدته « حرب غير عادلة ولا متعادلة » يقول .

فيم احتباسك للقـلم — والأرض قد خضبت بدم
سـدد قويم سنانه — فى صدر من لم يستقم

قل يا فتى الشعراء قـل   لبيك أم عصت الهمم !

ومن هذا يتضح مفهوم الوطنية الشامل لدى مطران ، وسبقه إلى الإشادة بالعروبة ، فى وقت كان مفهوم الوطنية فيه مقصوراً على التحرر الإقليمى، وقد ساد هذا المفهوم الشامل فى وقتنا الحاضر لا كفكرة بل عقيدة.

— ٦ —

وإلى اعتناق مطران مبدأ الحرية عقيدة ، ومبدأ العروبة فكرة ، قرن مبدأ الإنسانية ، الإنسانية التى لا تقوم وطنية حق بدونها ، الإنسانية التى تعتمد خير أبناء الوطن الواحد وأبناء الأوطان الأخرى .

ومن روائعه فى هذه الناحية قصيدته «الجنين الشهيد» و « الطفل الطاهر والحق الظاهر » وغيرهما من القصائد .

ولم يقف مطران عند التحدث عن الإنسانية الفردية ، بل إنه نظر نظرة إنسانية واسعة وهو يتحدث فى قصيدته « السور الكبير فى الصين » عن ملك مل ضعف شعبه وخنوعه ، وخشى عدوه عليه ، فاعتزم بناء سور كبير لحراسته داخله ، فتمنى عليه الشاعر ألا يفعل وألا يقيم عليه رقابة ووصاية ، بل يدع شعبه يجرب ويمارس الفضائل بنفسه ، إعزازاً لإنسانيته وحريته ، وهما دعامتا الرقى والارتقاء .

وانه ليقول فى نهاية القصيدة :

لا يعصم الأمم الضعيفة فطرة   إلا فضائل بالتجارب تكسب
فتكون حائطها المنيع على العدى   وتكون قوتها التى لا تغلب

ومثل هذه اللفتة الزكية من مطران تعد فلتة من فلتاته فى عصره ، الذى

كان جل أدبائه وشعرائه ينظرون إلى الإنسانية نظرة فردية ضيقة . ونظرة مطران إلى الوطنية الواسعة يمكن اعتبارها نقطة ابتداء لما يعتنقه المفكرون المعاصرون من مبادىء وطنية عميقة شاملة ، مبادىء تعتمد على التحرر الداخلى والخارجى ومجاهدة الاستعمار حيثما كان ، وتعتمد القومية العربية الموحدة ، كما تعتمد الإنسانية الواعية لحقوق الطوائف الصغيرة من فلاحين وعمال وموظفين وتجار صغار ، وحقوق شعوب الأوطان الأخرى .

— ٧ —

ومن الأهمية بمكان أن نسجل حقيقة لا تدفع ، وهى أن مطران كان من أول المبشرين بالحرية الفنية واستقلال شخصية الأديب والفنان ، وشعره الوجدانى والتصويرى والدرامى المطلق المتحرر يعد نقطة انطلاق للإبداع الشعرى .

ولا يستطاع فى هذا المجال بيان هذه الطلاقة فى أنواع شعره ، ولكنا نكتفى هنا بمثال من شعره الدرامى المتحرر عن القافية ، ونمثل بقصيدته « فنجان قهوة » التى يقص فيها قصة ملك طاغ أحبت ابنته جنديا جميلا من حراسه ، وتواعدا على اللقاء معا بتدبير مربيتها ، وعند اللقاء كان أبوها رابضا على هضبة عالية ، فرآهما وهما يتقابلان ، ورأى الحبيب الفارس واقفا تجاهها كالتمثال ، ووقعت الفتاة صريعة الخوف والرهبة ، وانتهى أمر الحارس بأن أحضره الملك ، وأمر بأن يسقى فنجانا من القهوة مسموما .

وقد تناول مطران ـ كما ذكرنا ـ القصة تناولا متحرراً فلم يتقيد بالقافية ، وإن تقيد بالبحر ، وجمع فيها العناصر الدراماتيكية المعروفة ، فبدأها بجو رهيب يلائم الحادث ، وأدار فيها الحوار ، وأوجد الأزمة ، وانتهى بنهاية مشجية ، وإنه ليقول فى إبداع : ـ

البحر ساج والسكينة سائدة والليل داج والمدينة راقدة
غمر الظلام هضابها وجبالها وقلاعها وصروحها فأزالها
لا نجم فى الأفق المحجب سامر خلل السحاب ولا سراج باهر

ثم ينتقل إلى تصوير الملك الجائر وهو فى أعلى الهضبة يقظان لا تغفو عيناه خوفا ورهبا من أوزاره وآثامه يقول :

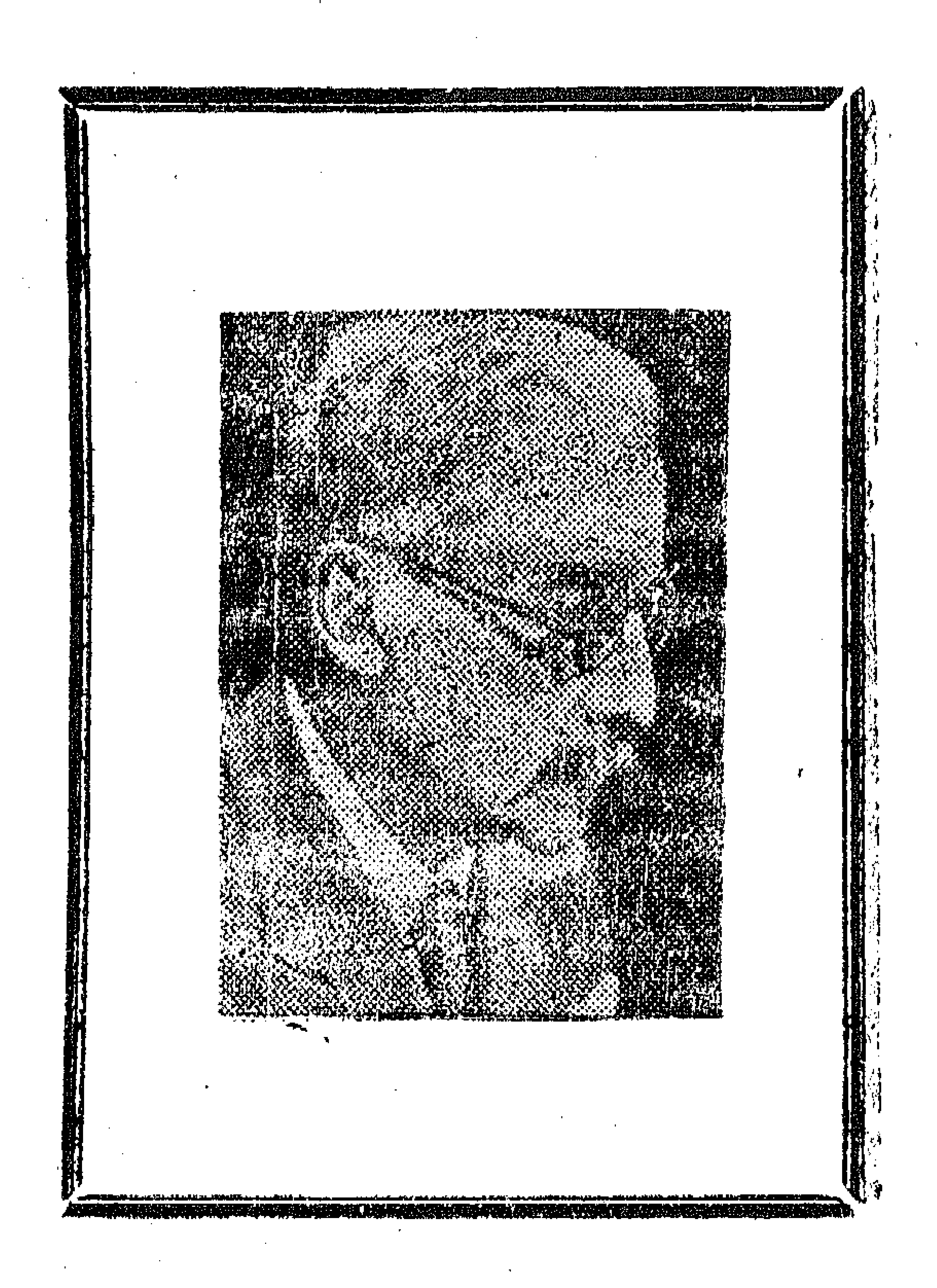
فى هضبة أقصى عليها ثعلب متدثر بالأرجوان معصب
ويجيل فى الآفاق أخبث ناظر متقلبا فيها تقلب حائر
ويميل إصغاء إلى النسمات خوفا من الأحياء والأموات
يخشى رعيته وهم يخشونه لكن يبيحهم وهم يرعونه

ويصور لقاء الحبيبين وما انتهى إليه من موت الحبيبة فزعا ورعبا ، من هول الموقف ، وبرود الحبيب عند اللقاء ، فيقول :

حتى إذا جاءت مكان الموعد حيرى النواظر والنهى لا تهتدى
سمعت خطى بالقرب ثم ورى لها برق وأغمد فى الظلام فهالها
وبدا لها فيما أضاء خيال ذاك الحبيب كأنه تمثال
فاشتد خفق فؤادها متوزعا بين المهابة والمنى متصدعا
وكأن ذاك البارق اللماعا سيف مضى فيه فطار شعاعا
فهوت لساعتها وقرت نائمة وقضت لبانتها ومانت ناعمة

ويذكر ما فعل الملك بعد رؤيته هذا الحادث الأليم ، إذ أمر باحضار الحارس الحبيب للمثول بين يديه ، وأخذ يعاتبه ويؤنبه ، والفتى واقف فى ذهول كتمثال جامد : يقول :

ورأت عيون النائم السهران ما قد جرى فى هضبة البستان .



خليل مطران

الشاعر العربي الابتداعي

١٨٧٢ - ١٩٤٩

فأشار أن يؤتى بذاك الحارس . من حيث كان من الظلام الدامس »
فأتوا إليه به كظيما شاحبا قلق النواظر حائراً لا هائبا
فرنا إليه كما يضيء الكوكب إذ شق عنه من بعيد غيهب
وعلى محياه ابتسام عتاب كالكهرمان منيراً بتراب
« ما هكذا يا أصدق الأعوان شأن الشجاع مصاهر السلطان »
أما الفتى فأقام غير مبال ما كان يسمعه من الأقوال
وكأنما هو قطعة من جلمد نحتت مثالا للذهول المجمد

وينتقل مطران إلى نهاية الفتى وشربه فنجان القهوة المسموم ، حتى إذا ما فعل السم بأمعائه فقتله وتلوى الفتى من البرحاء ، سمع نغم من وراء الستار ، نغم جامع بين الحزن والفرح . وفي ذلك يقول مطران :

وأشار رب القصر نحو الباب فاذا فتى آت من الحجاب
في كفه فنجان تبر فاخر قد فاح منه نشر بن عاطر
وافى عبوس الوجه والفنجان ضحك البياض يثور منه دخان
فتحرك الجندى حين تنسما ذاك الشذا ورأى الغلام تقدما
وتناول الفنجان ثم تفطنا لمقال سيده وأدرك ما عنى
مترشفا فنجانه متمهلا كترشف السكير كأسا من طلا
حتى إذا اشتدت به الأسقام وتقسمت أحشاءه الآلام
وأكب منطويا على أمعائه متلوى الأعضاء من برحائه
رمز المليك فرن خلف ستار نغم جرى بيد على أوتار
مزج من الأحزان والأفراح مرد كمزج السم في الأقداح

وبهذه القصيدة المتحررة من القافية يبرز مطران نقمته من استبداد الملوك لرعاياهم . واستبدادهم بالعواطف ، وما آل إليه هذا الاستبداد من

موت ابنة حبيبة مكظومة ، وقتل فارس من حراسه الأطهار .

— ٨ —

والملحوظ فيما أوردنا من القصائد نزعة مطران المتأصلة لتحرير المرأة وتقدير شجاعتها وبطولتها واحترام عواطفها :

فقد رأيناه في قصيدة « الجبل الأسود » يشيد ببطولة حسناء تزيت زي الرجال وحاربت في صفوفهم . وفي قصيدته « كسرى وبزرجمهر » يكشف عن شجاعة ابنة هذا الوزير وتحديها لكسرى بخلعها النقاب . وفي قصيدته « فنجان قهوة » ينظر إلى الفتيات في عطف وحنان ، وتقدير عظيم لعواطفهن وفي « نشيد الحرية » الذي أتينا ببعض فقراته آنفا إشادة بوطنية المرأة التركية التي كانت تحمل رسائل الأحرار من داخـــل البلاد إلى إخوانهم في الخارج .

وهذه اللفتة الكريمة إلى المرأة هي جزء من رسالته التحررية الشاملة لتعمل مع الرجل جنبا إلى جنب ، ولترفع عنها هذه العباءة السوداء التي خلعتها عليها عهود الرجعية والظلام .

وما أعظمها رسالة ! وما أكرمه رسولا دنيويا من رسل الحرية والإنسانية والارتقاء والسلام !

ابو شادى

الفنان والرجل

١٨٩٢ - ١٩٥٥

ابو شادى الفنان والرجل

— ١ —

أقفل عينيه فى عام ١٩٥٥ بعد أن فتح عيونا كثيرة .

ذلكم هو الدكتور أحمد زكى أبو شادى الذى خلف تراثا فنيا قيما ، وتراثا انسانيا من الشرف والإباء والتضحية وإنكار الذات .

هذا الفنان الموهوب ، والرجل الإنسانى الذى توحد الفن بحياته وشخصه ، فكانا كلا لا يتجزأ .

فلقد جرى الفن فى لحمه ودمه وهو فى ميعة الصبا ، ودف بجوانحه الإحساس الفنى ، فى البكور ، وذلك راجع إلى البيئة الأدبية السابغة التى تربى فى حجرها .

لقد تأثر الرجل بشاعرية أبيه الكلاسيكية وفصاحته ، وتأثر بأسلوب أمه العاطفى وطيبتها ، كما تأثر باسلوب خاله مصطفى نجيب ، ووطنيته .

وارتوى الفنان الصغير من ندوات أبيه التى كان يعقدها أسبوعيا فى قصره بالقبة والتى كان يؤمها كبار أدباء مصر وعلى رأسهم خليل مطران الذى تأثر أبو شادى بفنه وتجديده ، كما تأثر بمثاله الخلق الكريم ، وفى ذلك يقول أبو شادى فى ديوانه الأول أنداء الفجر ، الذى أخرجه فى عام ١٩١٠ :

أدبى يدين اليه ، بل قلبى وغاية مطمعى
وقوام تفكيرى الجديد وونبتى وتدفقى

— ٢ —

فى هذا الديوان البكر الذى أخرجه فى سن السابعة عشرة ، يتمثل لنا

لبوغ الفنان الباكر ، ونلمس الحاسة الفنية ، تتألق من ومضات التجديد والطلاقة التعبيرية فى بعض قصائده ، الغزلية والوطنية والوصفية ، فإذا تصفحنا قصيدته « باقة أنغام » التى يصف فيها حبيبته الصغيرة وهى توقع على البيان « نراه يصف الألحان أوصافا غير مألوفة فيصف اللحن باللون المضىء ، ويصف لحنا آخر بالعطر ، ويصف الألحان مجتمعة بباقة الزهور .

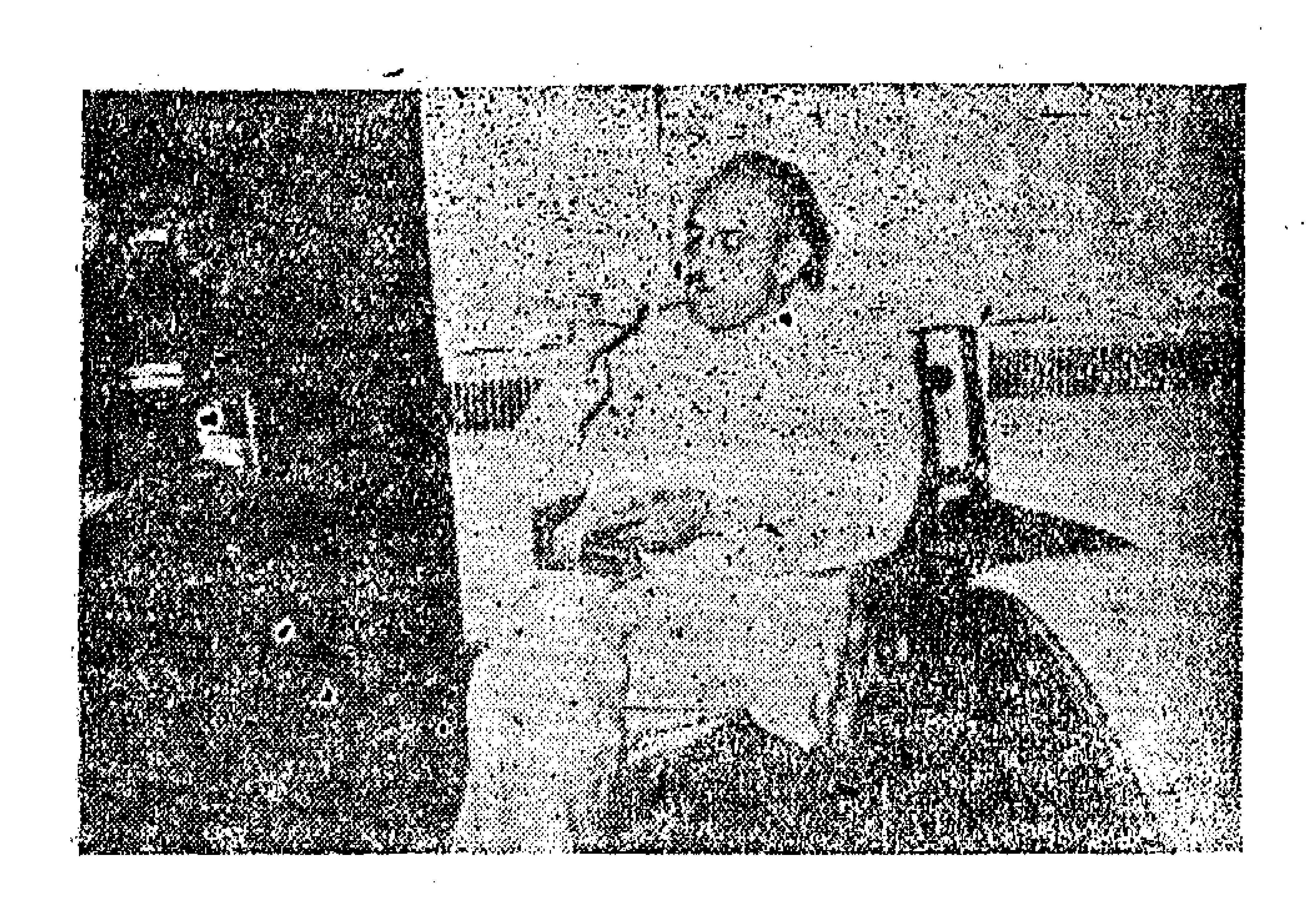
أصغى إلى هذه الألحان زاهية   كأنها نخب الأزهار الصين
فكل لحن له لون يضىء به   وجمعها باقة من زهرك الفنى
وكل لحن له عطر يفوح به   وإن تخيله غيرى من الظن
وأنت كونى وكونى فى حقيقته   جم المعانى التى غابت عن الكون

هذه الجرأة التعبيرية ، والاتجاه إلى المفارقات الوصفية . وهذا التركيز فى المعانى ، تكشف عن بذرة فنية أصيلة توشك أن تخرج إلى النور فى ازدهار وأثمار .

— ٣ —

وقد زكت البذرة فى البيئة الصغيرة ، وارتوت من ثقافته المصرية والانجليزية المبكرة ، واتقدت من حب عذرى وليد ، وترعرعت فى جو من الحرية ، وتغذت من ممارسته الموسيقى والتصوير فى البكور .

وكان تشوقه القراءة والتزود من كتب الأدب العربى من العوامل التى دعمت أدبه وفنه ، وتجلت آثارها فى كتبه النثرية « مسرح الأدب » و « أصداء الحياة » كانت جوهراً نفيسا مختبئا فى صلب صنائعه الفنية فما خلا شعره من حقيقة علمية أو سيكولوجية أو واقعية ـ ولا قوام لفن بدون علم وثقافة .



الدكتور الخالد أحمد زكى ابو شادى

١٨٩٢ — ١٩٥٥

وحبه العذرى لإحدى قريباته ، كان أول حوافز شاعريته ثم صار ينبوعا ثرا من ينابيع غزله فى شبابه وكهولته وشيخوخته . فهو فى اليفوعة يترنم بهذا الحب فى مثل قصيدته « عبادات » .

ما لعينى كلما ألقاك بالفرحة تدمع

وتستعر فى الكهولة شعلة الحب فى قلبه فيقول :

ربع قرن مضى وهيهات تمضى شعلة الحب عن وثوب وومض
لم أزل ذلك الفتى فى جنونى وفؤادى بنبضه أى نبض
ذكريات الهوى وأشباحه النشوى أمامى فى كل صحو وغمض

وهو فى الشيوخة تندلع بقلبه الشعلة ، فيقول فى قصيدته « قلب لا يشيب » :

عوذت قلبى ياحبيبى من أن يكدر بالمشيب
ذنبى لديك تلهفى هل ذاك ذنب ياحبيبى
ما حيلتى فى قلبى الظمآن للنبع الحبيب
تجرى السنون ولم تزل طملا تنزه عن مشيب

أما ميله إلى التصوير ، فقد سرى إلى قلبه فى اليفوعة وتجلى فى شعره التصويرى الذى لا يجاريه فيه شاعر ، فلم يخل ديوان من دواوينه من بضع صور لرسامين عالميين أو مصريين عبر أبو شادى بالشعر عن مشاهدها وحلل معانيها ، وكشف عن أسرارها فى دقة وقوة ملاحظة منقطعة النظير ، وقد انتهى به هذا الميل ، إلى التصوير بالريشة ، فرسم فى نيويورك لوحات زيتية رائعة ، وأقام معرضا للوحاته بنيويورك عام ١٩٥٢ ، أعجب به الرسامون وأعجبوا بفنه التصويرى القوى الجرىء . وأشادوا بموضوعاته المنوعة المذهب بين واقعية ومثالية ورمزية .

وقد وقفنا على بعض صور مصغرة لهذه اللوحات ومن بين ما افتتنا به

لوحة «القلب الكسير» وهى لوحة واقعية مثالية «تحمل رسالة» : رسم الفنان قطاعا من حديقة حيوان فى الربيع ، الاشجار فيها مزدهرة والسنجاب الفرح يتناول بندقا من يد سيدة . والسيدة مع طفليها فى سعادة والطفلان يلهوان بمناطيد ملونة . وفى خلفية اللوحة ، أسد حبيس بين القضبان ، «ملك الغابة يعانى الأمر ، والسنجاب فى فرح ، والأطفال فى سعادة ، فيا لعجائب الدنيا ومفارقاتها المؤسية ! .

— ٤ —

ولقد كان من حسن حظ الفنان أن يعيش فى ربوع انجلترا وفى حضن ريفها الجميل .. عشر سنين ونيف اكتملت فيها عناصر فنه وازدهرت : توسعت آفاقه الفكرية ، وربت ثماثته ، وتنوعت تجاريبه ، وعمقت تأملاته وقويت ملاحظته ، ودقت بدراساته الطبية ، وبخاصة أبحاثه المجهرية ، حتى أصبحت عينه أشبه بالمجهر . ترى العجائب والدقائق ، فى الأشيـــاء والأحداث وطبائع الناس .

ولما نال إجازته الطبية عام ١٩١٥ وشهادتى شرف من جامعة لندن سنة ١٩١٦ و ١٩١٧ ووجد العمل فى مهنة الطب مزدحما عليه فى انجلترا تحول إلى النحالة . وكان رائدا من روادها فى انجلترا . وقد تعلم من النحلة جدها وإتقانها وتعاونها .

واترك الخوض فى هذه الناحية . لرجل غريب يتحدث عن أبى شادى فى هذه الفترة . وهو المستر هاركر فى كتابه «إضاءة الطريق» يقول :

لقد كان النحالون منقسمين معسكرات ، ولكنهم سحروا باخلاص ابى شادى . وتجمعوا حول لوائه . لقد تأثر الانجليز وغيرهم بكفايته وحماسته فى هذه المهنة .

ثم ينوه بحيويته وجده يقول :

لقد كنا نقوم فى الفجر وجيو بناملينة ببـذر البرسيم الأبيض والبسلة . نبذرها فى التربة القحلة وحول المنحل .

ومن تجاربه الشخصية عنه يقول « لم يكن الدكتور أبو شادى يدخن اللفيفة . ولـكنه كان يفضل الغليون ، وفى يوم من الأيام عمل خليطا من الأعشاب ، وأرادنى على استعماله من أجل الصحة والاقتصاد . فوجدت هذا الخليط طيبا واكتشف الدكتور أن الدخان مفيـد لتذليل النحل . فاستخدمنا التدخين للنحل فى الأيام الحارة بعد الغذاء » .

ويحدثنا المؤلف عن ذكريات هذه الفترة وكيف كان يقضى أبو شادى وقت فراغه فى القراءات الأدبية والفلسفية . وبعض الأحيان فى الصيـد على شاطىء نهر التيمز يقول :

« لقد كنت أراه جالسا فى الحديقة ، بعد غذائه الخفيف ، منهمكا فى قراءة ديكنز الذى كان يحبه ، غير مكترث بالنحل الذى كان يطن فوق رأسه فى خط حلزونى . وهو يتنقل بين الخليات » .

« وبعض الأحيان كان يربض على العشب والغليون فى فمه ، منهمكا فى قراءة كيتس وشيلى أو متصفحا كومت وهيجل ، أو قارئا ، ه . ج ويلز ، أو مراجعا اسحق والتون العجوز ، كنت أراه فى مثل هذه الجلسات ، يسجل درة من درر الحكمة حومت بخاطره .

ويقص علينا حادثا صغيراً ، ولـكنه كبيراً فى معناه ويدل على ثبات أبى شادى ، وصبره يقول :

« فى أمسية من أمسيات الصيف كنا نصطـاد عند شاطىء هادىء من

شواطىء التيمز ، فهبت عاصفة راعدة بالشتا ، وكنا لا نرتدى المعاطف ـ وطفق الدكتور ممسكا بمظلته وأبى أن يغادر مكانه ، ولكننى التمست مأوى وهناك بلا قبعة ، ولا معطف ، لبثت عيناه مثبتتين على العاصفة ... ولا يريم عن مكانه ولا يتحول .. » ويتوج ذكرياته بذكر بعض سمات أبى شادى الرجل ، ويختمها بحادث كبير فى معناه يقول :

إن أب النحالة لم يتخلخل يوما فى عمـــله أنه لم يستعظم تضحية من التضحيات من أجلنا » .

« لقد كان الرجل مثالياً ربط عربته بالنجم ، وعندما اضطرته الظروف إلى العودة لبلاده فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٢٢ لمرض والده الخطير ولأذاه من الروماتزم المفصلى . كان عليه أن يبيع بيته ، ولكنه لم يتقاض ثمنا ، بل ترك لجمعيتنا أمر التصرف فيه وفى إجراءات بيعه . تاركا لنا حصيلة البيع ، مع أنه كان فى شدة الحاجة إلى المال ـ إنه اقترض أجرة عودته وزوجه إلى مصر ، وهذه التضحية تضعه فى صف القديسين !! » .

— ٥ —

وعاد الفنان الإنسان يفتح عين بيئته التى غاط الكرى أجفانها يفتحها على نهضة ابتداعية سليمة مشرقة ، عاد يبشر بألوهة الجمال والاندماج فى الطبيعة ، وحرية الفكر . ومجاهدة التقاليد الآفنة العفنة ، وعاد ليشدهها بمعانيه الجديدة الطريفة وتجديداته الفنية ، التى لم يعرفها جيل من الأدباء الكبار ، ومن هذه التجديدات وصف الشىء المادى بالمعنوى ، ووسم المادى بسمة من سمات الإنسان كما جاء فى قصيدته « الفنان » التى يخاطب فيها حبيبته فى موسقة آسرة ، وطلاقة بيانية يقول :

أطلى يا حياة الروح فى عيش تحييني

شرابى منك أضواء وتوقى أن تناجينى
أطلى وانظرى شغفى ترى معنى عباداتى
عبادات خصصت بها وفى عينى مرآتى (١)

عاد ينفح البيئة بترجمة الهمسات ، والخوالج النفسية بما لا عهد لها به ـ كما نجد ذلك فى مثل قصيدته « أحلام الظلام » (٢) التى يترجم فيها عن نفسه وعواطفه عند الوداع والتى يقول فيها :

وقفت كرقفة الدنيا إذا ما	أطاح بها السلام إلى الحمام
وما هى غير لحظة : مستمر	ولكن قلبه دام ، ودام
ويجرى النور فى لون عجيب	على وجناتنا جرى المدام
فنسكر فى صموت اليأس حتى	كأن اليأس من سكر الغرام
واشرب حسرتى الكبرى دواء	وإن كان الدواء من الضرام

ولم يقف أبو شادى عند التجديد الفنى ، بل شده البيئة الجامدة بآرائه المتحررة الجريئة ، شدهها بشعره الغزلى الذى قدس فيه جمال المرأة ، بل عد الجمال من عناصر الألوهية أو رموزها ، شدهها بشعره الصوفى الذى اعتمد على العلم لا على التوهمات والتخيلات والشطحات ، فتمثل وحدة الوجود وحدة قائمة على المعرفة ، شدهها بشعر الميثولوجيا ، أو الأساطير الذى احتفى به احتفاء شديدا ، لاستقطار الحكمة منه ، وشدهها بشعره الملى ، الذى خصص له ديوانا أسماه « الكائن الثانى » (٣) ونثر منه نثرات فى دواوينه الأخرى ، شدهها بتفكيره الحر ، وقوله الحق ، حتى كادت كلمة الحق لا تدع له صديقا .

---

(١) ديوان أطياف الربيع ـ القنات : ٣٢ .
(٢) ديوان فوق العباب : س ٥٨ .
(٣) أخرجه فى يناير ١٩٣٥ .

فبينما كان أدباؤنا كبار الأسنان يتمسحون بأعتاب الملك فؤاد ويسبحون بحمده ، وجه إليه هذا الموظف المتحرر قصيدة فى أحد اعياده ، يدعوه فيها إلى رعاية الشعب ، والنظر إلى بؤس الفلاح ، وقد حضرت كتابتها ، لقد كان يكتبها فى شبه ارتجال كما هو العهد به وعما جاء فيها قوله :

الشعب أن بما يعانى ريفه وكأنه قفر بلا سكان
والعابثون الصائحون تنعموا فكأن هذا الريف ليس يعانى
والزارعون المحسنون تمرغوا فى الترب كالموتى بلا أكفان

واختتمها بقوله :

فاقبل رجائى فهو أنبل غاية عن كل مدح لا يثيب رجاء
واسمع لصوت الشعب من فم شاعر يأبى رياء المادحين إباء

— ٦ —

وهكذا ظل أبو شادى نصيراً للحقيقة ، بل مجنونا بحبها ، ظل وفيا لمبادئه الرفيعة ، لا يتخلى عنها ، فكم خاصم وخاصم أدباء لانحرافهم عن الجادة ولكنه كان منصفا أمينا عادلا فى وزن أدبهم وصنائعهم الفنية ، والنزاهة الفكرية أعلى سمات الفنان .

وكم حمل على زعماء كانت تربطه بهم أواصر أسرية قوية لانحرافهم عن أهداف الشعب ، لأن المبدأ عنده أرفع من كل آصرة ، ومن كل قرابة .

وكم ذا لقى الجحود والعقوق والغدر من أناس عاونهم أدبيا وماليا ، ولكنه كان فى النهاية يصفح عنهم وينسى إساءاتهم ، لأن الذى يعرف الكل يغفر للكل كما يقول المثل الغربى ، أو كما يقول فى قصيدته « محال » (١) .

---

(١) أطياف الربيع ص ١٣٢ .

محال أن تحاول هدم حبي　　وإن لم ألق بين الناس حبا
صفحت عن الخصوم وإن أساءوا　　وكادوا واعتبرت الكل صحبا
لهم أسفي وإشفاقي وقلبي　　وإن لم يعرفوا أسفا وقلبا
ومهما خلتني أشكو بيأسي　　ذنوب الناس خلت اليأس ذنبا
سيطوينا الزمان وكل ذنب　　سيمحوه الزمان لمن تأبى !

* * *

ومن هذا نشهد كيف اقترن فن الرجل بانسانيته، وكيف قويت ملاحظته ودق تحليله، وتدعم أدبه بثقافته، وكيف علا أدبه بأمانته ونزاهته الفكرية، وكيف تقوت أصالته بحرية فكره وغرامه بالحقيقة، سمات الفنان الحقيق: الحساسة الفنية، وقوة الملاحظة، ودقة التحليل والحياد الفكرى، امتزجت بسمات الرجل: إنسانيته وتضحيته، ومحبته، ورقته وثقافته، فاصبح الفنان والرجل كلا لا يتجزأ، وهانحن أولاء نأتى ببعض ذكريات عن الشاعر وفنه :



ذكريات عن الشاعر وفنه

اتصلت بأبي شادي اتصالا وثيقا ، وتجاوبت معه تجاوبا روحيا وفكريا ، فأحببت فيه الفنان ، الفنان الذي يهتز لخوالج نفسه المنوعة . ولموحيات الحياة حوله ، ولخلق البشر ، كما تهتز أوراق الأغصان في هبات الرياح .

ولا أعرف نظيرا له في شعراء الشرق ، في شدة تجاوبه وسرعة تعبيره ، في تلقيه وإعطائه ، في تفتح قلبه وذهنه ، وعينه وأذنه لما حوله ومن حوله . الانفعال الذي يثيره ، وما أسرع إثارته ، والفكرة التي تطوف بعقله ، والمرأى الذي تقع عليه عينه ، والنغمة التي تتهادى إلى أذنه ، تستحيل جميعا في بوتقته النفسية خلقا فنيا بديعا .

كل ما رق وجل يحتفي به ، ويشيد بجماله في مثالية عجيبة :

كم في الحياة مجدد لا ينتهي	ولكم حقير وهو غير حقير
لاموا شبوب عواطفي وتخيلي	وتدفقي بالشعر ملء شعوري
وأنا الخجول أمام ما أنا ناظر	من كل موح بالغ التأثير
فيهزني هزا ولكني الذي	مهما أجدت أحس بالتقصير
وأكاد أوقن أن من هو لائمي	إما ضرير أو شبيه ضرير
إنا بكون كله شعر بلا	حصر وكم من عاجز مغرور (١)

* * *

ولقد بلوت منه هذه الاحساس الفني المرهف ولمست هذه القدرة

(١) ديوان الينبوع ص ١٩

الفائقة العجيبة فى الفترة الطويلة التى صاحبته فيها ، وعاصرت كل إنتاجه الشعرى .

زارنى فى أواخر عام ١٩٣٤ فى بلدى الصغير الجميل ميت غمر وهو درة البلدان المصرية ، كانت الزيارة خاطفة ليلة ونهارا ، فكتب أربع قصائد فى ذكرى ميت غمر ، أودع فيها كل ما رآه فى سفره من بنها إلى ميت غمر ، وفى رؤيته لميت غمر ، وفى خلق الصحب الذى جلس إليهم . وفى الرحلة النيلية إلى حديقة دهتورة الأثرية التى ذهبنا اليها ، وما كاد يجلس فى هذه الحديقة ويرى النيل وهديره حتى أمسك القلم وكتب قصيدته فى « حمى الهدير » ، ونظر فوجد أشجارا عجيبة سألنى عنها فقلت: إنهم يسمونها ، الصنوبر الكاذب فكتب فيها مقطوعة كان ينظمها ارتجالا ، حتى كنت أعجب بهذه المقدرة على تركيزه الفكرى وهو يرتجل ، وإليكم آخر ما جاء فى قصيدته « ذكرى ميت غمر » ، وهو يصف نزهته فى الزورق يقول :

وأتى النهار وكم حمته أطايب	غنى بها المجداف والملاح
والنيل يدعونا فنقبل جوده	وكأنما أمواجه أفراح
فرحت بنا فرح الكريم بضيفه	وتألق الزبد الوضىء عليها
وكأنه شعر الحنان مرحبا	وكأنما كنا نحج إليها

هذه العفوية نلمحها فى كثرة من قصائده ونذكر على سبيل المثال قصيدته « فيضان النيل » التى دبجها برفقة بعض صحبه فى كازينو الحمام ، وقصيدته « منازل النيل (ص ١١) بديوانه أطياف الربيع التى نظمها فى القطار عند ما تأثر من قالة منحرفة لأحد الأجانب ، وقصيدته « مدام بترفلاى » التى كتبها ارتجالا بعد مشاهدته لهذه الأوبرا ، ويقول الصيرفى وقد كان مصاحبه ، أنه رأى دموعه وهو يشهد هذه الأوبرا تنهمر ، وقصيدته « سبحة تقيه » التى كتبها

ارتجالا فى جمعية أبولو وقد رأى فقيها ، كان يجالسه ، فما كاد يرى فتاة جميلة ، حتى حلق فيها وسبقت عيناه إليها عيون الجالسين ، وقد جاء فيها :

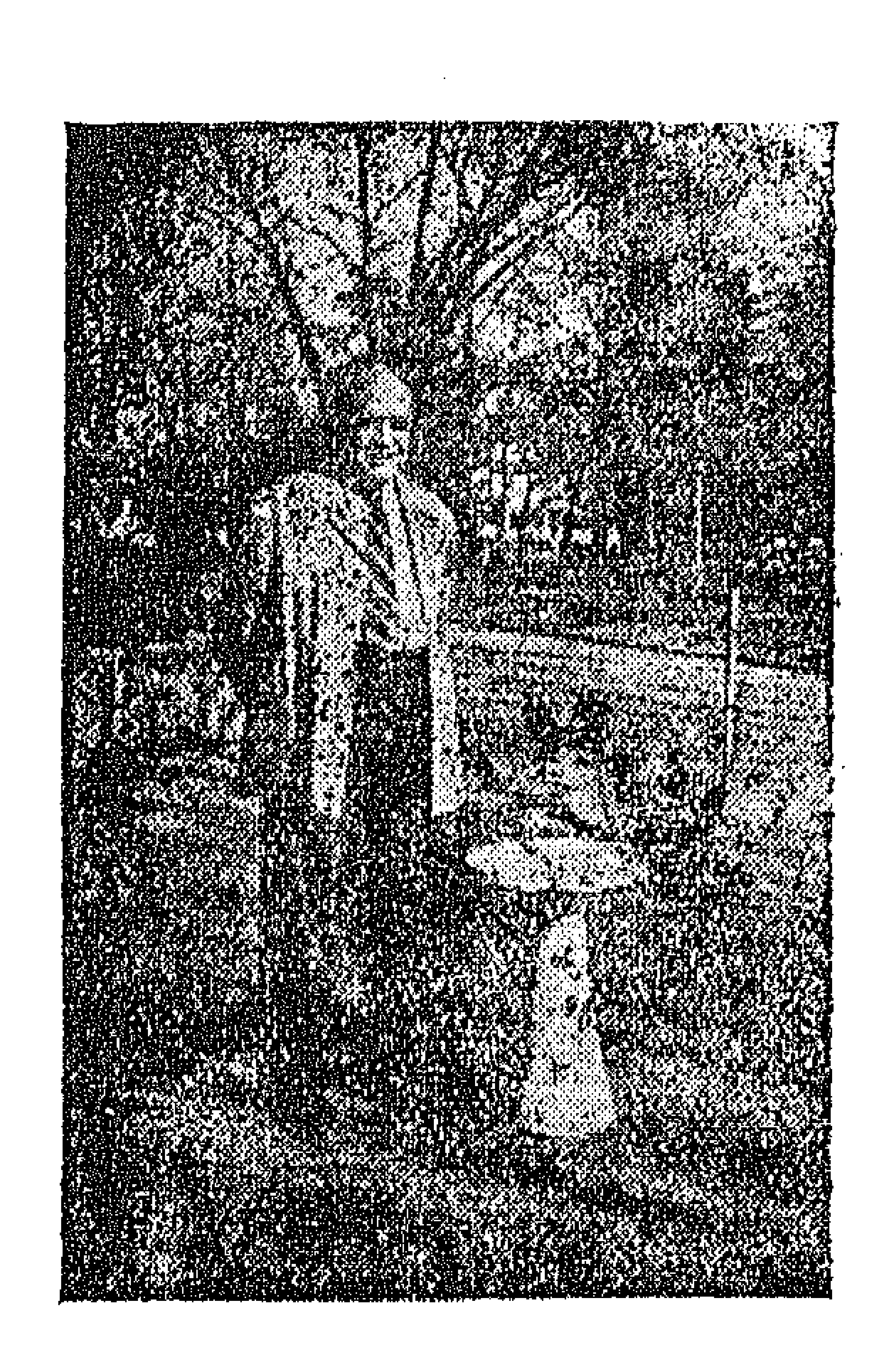
كم من فقيه فى ثياب منزه ويطل من عينيه روح أثيم
تجرى أنامله على خرزاته جرى اللئام على حساب كريم
وتلوح سبحته كثعبان بلا روح سوى روح الفقيه العاتى
من ذا رأى الثعبان سبحة عابد ورأى الصلاة مصاب كل صلاة

وإذ وقفنا قليلا عند هذا القصيد ، وغيره مما أسلفنا ، نلحظ شدة تجاوبه وذكائه السريع العميق ، وقوة تصويره وتحليله ، وهذه هى ميزات الفنان الحقيقى .

فالمعروف أن الفنان يكون دائما متنبها حيا فى حالة تأمل ودهشة وكشف ، وكل ما يراه كأنما يراه لأول مرة ، ومميزات الفنان الجوهرية الملاحظة والتحليل والتمييز ، وقوة التعبير وحدته ، وقد تميز فن أبى شادى بهذه السمات .

ويكفى ألقاء نظرة عابرة على استيحائه الصور الفنية وتماثيل المثالين ، لندرك أى دقة فى الملاحظة ، وأى عمق فى التحليل ، ونقتصر فى الدلالة على ذلك استحياءه لصورة باللوفر صورة صراف محملق فى جواهره وإلى جواره زوجته وبيدها كتاب تركته وأخذت تنظر إليه وفيها يقول :

الصيرفى إذا تمعن نظرة هى روحه مبثوثة فى ماله
تجد الحلى أمامه أحلامه ومآله متعلق بمآله
فاذا البقاء لها بقاء شعوره وإذا الضياع لها قرين زواله
وكأنما الإمعان أكسب وجهه طولا وكان التبر لون خياله
يتأمل المال العزيز كأنه يتلو عبادة مؤمن أوواله



الدكتور أبو شادي

ويكاد يحسب فى الإطالة منتجا ... كالذهن بعد تأمل لنواله
هو كل دنياه وأخراه معا ... وجمال زوجته وأنس عياله
نظرت إليه وأمسكت عن نظرة ... بكتابها واستمتعت بمقاله

— ٣ —

ويقف المرء حائرا فى تعليل أصل هذا النزوع الفنى ؟ هل يرجع إلى عوامل وراثية ؟ أو إلى عوامل فسيولوجية أو إلى عوامل اجتماعية وثقافية وعندى أنه يرجع إلى هذه العوامل مجتمعة ، ونحن نلحظ تعاون هذه العوامل فى تكوين هذا النزوع لدى أبى شادى فنجد أنه ورث الميل إلى الشعر من والده والدته وقد كانا شاعرين مجيدين ومن خاله المرحوم مصطفى نجيب ، وكان فى الرعيل الأول من الشعراء الممتازين

ونلحظ أيضا من تكوين أبى شادى الفسيولوجى هذه الحيوية العجيبة والنشاط الديناميكى ، ونحسب أن هذه الحيوية مرجعها إلى غدته الدرقية الناشطة ومظهر ذلك عيناه الصافيتان اللامعتان وإلى جهازه العصبى الحساس الذى يحكى جهاز الاستقبال ، كما نلحظ نماء هذا النزوع فى البيئة الأدبية التى عاش فيها وما كان يستوحيه من مجالس أبيه التى كانت تجمع بين كبار الأدباء من أمثال حافظ ومطران ، كل هذه العوامل عاونت على تهيئة نزوع الفنان .

يقول أبو شادى فى تذييل ديوانه « أنداء الفجر » الذى أخرجه عام ١٩١٠ يتحدث عن حياته الأولى .

« كان والدى رغم تربيته الأزهرية عصرى الروح فى كثير من تصرفاته ، وكان السلاملك بداره الكبيرة فى سراى القبة بمثابة صالون أدبى ، كان يجتمع فيه الكثيرون من أهل الفضل والأدب والمنزلة الاجتماعية ، وبينهم أشهر

رجال الصحافة والأدب والشعر فى مصر وكان واسطة عقدهم أستاذى خليل مطران ، وهكذا تعلقت بحب هذا الرجل النبيل منذ طفولتى . . . »

« ولولا افتتانى بمطران لكان الأرجح أن لا تثور روحى الأدبية تلك الثورة فى محاولتى اقتفاء خطواته السريعة »

وكذلك تأثرت فى صباى بشخصيتين بارزتين ، الأولى شخصية أحمد محرم الذى أعده فى شعره الوطنى والاجتماعى أسمى منزلة من حافظ فى جميع عناصر الشاعرية ، والأخرى شخصية مصطفى صادق الرافعى الذى لمحت فيه آيات الذكاء والشاعرية ، ولكن يكاد ذكاؤه يفسد عليه عاطفته وأحببت ذلك الذكاء المتوقد .

— ٤ —

وقد قوت هذه العوامل ، حوافز وجدانية دعت أبا شادى إلى نزوعه الفنى ، ومن هذه الحوافز حبه البرىء فى الصبا ، هذا الحب الذى ملك عليه قلبه . فقد أحب زهرة من زهرات أسرة تمت إلى أسرته هى ابنة أخت زوج أبيه .

ومن عجب أن ينبت هذا الحب فى أسرة لا تميل إليها بالطبيعة الأم ، ولكن الحب دائما يعلو ويسمو على كل اعتبار .

ومن هذا الحب الوليد الذى وئد قبل أن يشب بزواج الحبيبة ، من هذا الحب وجد الشاعر حافزه بل وجد ينبوعا ثرا من ينابيع فنه الغزلى العفيف

فهو فى ١٩١٠ يترنم بهـذا الحب ، فى قصيدته « عبادات » ص ٦٣ التى أتينا على شىء منها آنفا .

ومن عجب أن تبقى جذوة هذا الحب مشتعلة بعد أن هدف إلى الستين

وبعد أن أوفى عليها ، ولكن حبه فى هذه السن كان حبا تجلله الحكمة والتعقل ، والفلسفة وعمق الفكرة ، وقد أخرج فى عام ١٩٥٤ ديوانا أسماه « أغانى الحب » ضم مثل هذه القصائد « إلى ملاكى » ، « تيقظ يا حبى » ، « خطاب حب » ، «الحب الخالد» ، « الفجر » وفى هذه القصيدة يقول :

ابتسمى . ابتسمى ، وفيضى على صوتى
بالحب الذى هجرنى منذ أمد طويل
لأننى ولدت للحب ، لا للمنازعة
وبدونه لن تكون حياتى مبادلة
أن حلاوتك المليحة لا أحد
يقدرها ويعدها كنزا
فهل تستبدلين تنهدى بفرحة
وتغنى فنى ، وتكونى حارستى
ابتسمى ! ابتسمى ! يا عزيزتى
وداو جزعى ويأسى
فان عبادتى النادرة ليست أضحوكة
أولا قيمة لها ، ولكنها تستأهل اهتمامك
الأرض تدور وتعود ثانية إلى
مستقرها التى تحن إليه
وهكذا أنت عندما يعوزك
الحب الذى يهزنى للاحتك

كما أخرج بالإنجليزية ديوان أغانى « الحزن والفرح » ، وفيه نجد مثل هذه القصيدة « الجحود » التى جاء فيها قوله:

لقد كانت سيدة جميلة

أنت إلى وقالت

« لا أريد أن أراك »

كما لو كنت عدوا لها

قلت لها « ولماذا ؟

قالت « لقد اعتدت أن تعبدنى »

هو : إنى مدين لك بحبك

وهذا ما قلته بفرحة

هى : « لقد قيدتنى بالاستشهاد فى سبيلك ومع هذا فقد نحيت شخصيتك وخلقك وفكرك

وعندما حظيت بحريتك

وصحتك ورغباتك

وطأت على بانتقام

مذهل محير

هل الحب يلد الكراهية

هل الشفقة تلد القسوة

هل من أجل إنكار الذات

نستحق الغدر المحض

ثم زمجرت فى بساطة

وقالت « أتتجاسر أن تضايقنى

بهلوساتك

ظننت أنى مجنون

أو أنها الدنيا التى من حولى

وقبلتها وربت عليها
ولكنها تركت خنجرا فى قلبى
آه . أيتها البشرية
القذرة الموحلة
سأتركك إلى صومعتى
وأقفل شراعات نوافذى

هذه بعض ذكريات عن أبى شادى الرجل والشاعر ولا استطيع أن أوفى هذا الرجل حقه ، كما لا استطيع أن أكشف عن بدائع فنه فى هذه العجالة فأبو شادى بحر فياض يكتفى الغواص بالفرحة بالعثور على بعض جواهره

شخصية إبراهيم ناجي

١٨٩٨ — ١٩٥٣

شخصية ابراهيم ناجى

من المتعذر النفاذ إلى شخصية الشاعر الغنائى الوجدانى المثالى ناجى ـ فتحليل أسرار هـذه الشخصية وتعمق العوامل التى كونتها يتطلب تعرف دقائق حياة الشاعر، ووراثته، وبيئته، ودراساته وأقواله وأعماله الأدبية، كما يتطلب فهما عميقا لسيكولوجية الشخصية ذاتها، ولهذا أرجو اعتبار هذه الكلمة محاولة، ومحـاولة جريئة لتعرف خصائص هـذه الشخصية وسماتها، إنهـا ظلال وأضواء خاطفة للذين يريدون رسم صورة حقيقية كاملة لناجى الإنسان.

فالشخصية كما يقول ناجى فى كتابه « رسالة الحياة » ص ٥٩، سبيكة متماسكة، وهذه السبيكة مكونة من خصائص موروثة، وعاطفـــة وعقل وأمزجة، وإذا كنا قد عرفنا من أمر هذه السبيكة الكثير فلا يزال باقيا الكثير.

وأول ما يطالعنا من ناجى هو وجهه المعبر وملامحه الناطقة بأبرز سماته.

العينان الواسعتان الحالمتان يغمرهما الحنان، الأنف الكبير المجنح النام على الاعتداد والإباء وسعة الخيال، هاتان الوجنتان العاليتان الناطقتان بالجرأة والمغامرة والاقدام، هذا الفم الحسى الذى لا تفارقه الابتسامة اربدت الدنيا أو أشرقت، هذان الفكان الحادان العصبيان المنتهيان بذقن دقيق ضئيل دال على الوداعة والهوادة واللين، يعلوها جميعا هـذا الرأس الكبير العجيب فى كبره، تبرز منه جبهة عالية نبيلة ذكية.

هذه هى ملامح ناجى الوجهية للمتفرسين ، وهى النافذة التى نطل منها على شخصيته ، وهى فى جملتها تدل على عقل كبير وقلب عظيم وإرادة واهنة ولو كانت إرادته متعادلة مع قواه الشعورية والفكرية ، لـكسبنا عظيما جبارا ، وفقدنا شاعراً نابغا فنانا .

ونظرة سريعة إلى وراثته تحدد لنا تحديداً عاما الخطين الرئيسيين لاتجاه شخصية ناجى ، وتكشف لنا عن طبيعته الشعورية الدفاقة ، وطبيعته التفكيرية الهادئة ، وغلبة الأولى على الثانية ، فقد ورث من الأم مرحها الفائق وطيبة قلبها وحساسيتها ، ومن الأب جده ونزوعه إلى التفكير ونزوع ناجى الوجدانى الغلاب يتأكد من ميوله فى الصغر ، فقد كان يميل بطبعه إلى القراءات الأدبية والشعر بخاصة ، وكان يغرم بسماع الموسيقى ، كما حدثنى بذلك أخوه الأكبر الأستاذ محمد ناجى إذ قال .

كان إبراهيم مغرما بالمطالعات الأدبية ، وسماع الموسيقى ولم يكن يهتم بالألعاب الرياضية ، كما كان يفعل رفاقه الصغار ، وأول شاعر استهواه : الشاعر العربى الوجدانى الشريف الرضى ، وكان يحفظ ديوانه عن ظهر قلب .

ويتجلى هذا النزوع الوجدانى وغلبته عليه فيما خلف من تراث شعرى وجدانى صادق رفاف ، تأثرت به قلوب وقلوب ، يقول ناجى :

وأنا الذى قضى الحياة مغبرا ومرجما لخوالج الوجدان

رجع ناجى كما يقول خوالج وجدانه ، وأوهامه وخيالاته وتهويماته ، يجد فيها جذله ، وابتهاجه وسعادته بل شفاء بدنه . والأديب الحقيقى — كما يقول فى مقاله « سيكولوجية الأديب » — له خصائص الطفل فى فرحه بالأشياء وسذاجته وتهلله وضحكه وخياله ، وفرحه وابتهاجه بالموسيقى .

فلا عجب إذا رأينا هذا الطبيب الماهر لا يعرف فى بعض الأحيان



علاج المرضه ، إلا التملى برؤية البحر والنظر إلى السماء ، والتداوى بالأغانى ، وإنه ليروى لنا حدثا عجبا فى محاضرة له عن شكسبير يقول :

« مرضت مرضا لم أدركنهه ولا صفته ، ولا أعلم اليوم ما اسمه ، وإنما أوقن أنه من الحالات التى يضيق فيها المرء بالدنيا ولا يؤمن بصحب ولا طبيب ولا يجد فرجا إلا بالتطلع إلى السماء لعله يجد ثقبا يستنزل من خزائنه رحمة لم يعثر بها على الأرض » ... « وكنت قد فكرت أن أجلس فى حوار البحر طلبا للشفاء ، فوضعت يدى فى مكتبتى وضعا أعمى ، لا أتخير فيه كتابا بعينه ، فخرج لى كتيب صغير هو أغانى شكسبير ، فأخذت أتداوى به ، أتداوى بالقرب من البحر وبأغانى شكسبير حتى تم لى الشفاء » .

فلا غرو اذا رأينا العاطفة تحكمه طوال حياته ، ولا غرو إذا رأيناه يبكى فى قصيدته التأملية « المساء » كدح الفقير ، ويعطف على بؤس الراقصة فى قصيدته النابغة « فى المرقص » ويغفر للحبيبة الضالة فى « ملحمة الأطلال فيقول فى الأولى : —

وارحمتاه للقوى الصبور ... يقضى الليالى فى كفاح عنيف
وكيف لا أبكى لكدح الفقير ... أقصى مناه أن ينال الرغيف
كم صحت اذ أبصرت هذا الجهاد ... وميسم الذلة فوق الجباه
يا حسرتا مما يلاقى العباد ... أكل هذا فى سبيل الحياة ؟

اما فى ملحمة « الأطلال » فهو يبلغ الذروة فى الإعراب عن انفعالاته تجاه حبيبته التى ضلت الطريق ، وهذه الملحمة نموذج لوجدانه المفعم بمتنوع الانفعالات ، فهو لا يكاد يغضب ويثور بالسخط عليها والنقمة منها حتى تعاوده سماحته وطيبة نفسه ، وحنانه حتى على من يكره ، ويلوذ إلى نفسه يواسيها وإلى ما فعلت هذه الضالة فيغفر لها ، وفى نهاية هذا القصيد يرمز

لأول مرة ويصف الحبيبات بالزهرات يقول:

أيها الشاعر خذ قيثارتك غن أشجانك واسكب دمعتك
رب لحن رقص النجم له وغزا السحب وبالنجم فتك
غنه حتى ترى ستر الدجى طلع الفجر عليه فانهتك

ثم يقول صالحا ملتمسا العذر للحبائب :

وإذا ما زهرات ذعرت ورأيت الرعب يغشى قلبها
فترفق واتئد واعزف لها من رقيق اللحن وامسح دمعها
ربما نامت على مهد الأسى وبكت مستصرخات ربها
أيها الشاعر كم من زهرة عوقبت لم تدر يوما ذنبها

هذا النزوع الوجدانى المشبوب فى تأملاته وغزلياته ، وجد جذوره المتأصلة فى بيئته الصغيرة ، التى كان يلفها إيمان مكين وطبيعة مونقة تطيف بالبيت الكبير الذى درج فيه الشاعر . هذا إلى حب طفلى خفى لم يكشف عنه القناع . ولكنه رقد فى شعر صباه .

فى البيت الكبير الذى ولد فيه ناجى ، تفتحت عيناه على أسرة تقية ، ومسجد بالبيت يقام فيه ذكر الله ، وفى جيرة البيت ، وقعت عيناه على فناء تجمله أشجار التوت والجميز وأعواد الغاب كما وقعت على حقول رحيبة فنمت فى نفسه من هذه المشاهد التأمل والتخيل ، والعكوف على الأحلام وعلى هذه التأملات والأحلام طعم الوجدان واقتات ، ووجد الالهام نبعا ثرا من ينابيعه .

عاش إبراهيم على هذه الأحلام ، ورقد فى قلبه الإيمان ، وأى إيمان؟ إيمان خفى متغلغل إيمان الصوفى المتمرد على التقاليد المائمة ، وعلى أوضاع

المجتمع ، إيمان الفنان الواله العائش فى فوضى لذيذة كما يقولون ، عاش بإيمانه الطهور على الأرض كالزنبقة البيضاء فى الطينة السوداء وأنه ليقول :

سموت كأنما أفضى إلى رب يناديني
فلا قلبي من الأرض ولا جسدى من الطين
سموت ودق إحساسى وجزت عوالم البشر

وتزود وجدانه من جمال أبناء الطبيعة وبناتها وآضت الطبيعة طوال حياته مسلاة لنفسه ، مطهرة لهمه ، وكم ذا ناجى القمر ليخلصه من آلامه :

خذنى إليك ونجنى مما أعانى فى الثرى
قدحى ترنق فاسقنى قدح الشعاع مطهراً

وكم ذا ناجى النهر والليل ليغصيا همومه :

يا أيها الليل جئت أبكى وجئت أسلو وجئت أنسى

أما الحب فقد كان أكسير حياته ، كان قوته الروحى وشرابه الحلال وأمله السرى ، وهو يحدثنا عن هذا الحب فى طفولته ، فى مقطوعة « على البحر » بديوان ما وراء الغمام ص ١٠٢ وفيها يقول :

إنى ذكرتك باكيا والأفق مغبر الجبين
والشمس تبدو وهى تغرب شبه دامعة العيون
هل أنت سامعة أنينى ياغاية القلب الحزين
يا قبلة الحب الخفى وكعبة الأمل الدفين

وهو لا يفتأ يذكر فى حنين حب الطفولة الذى لا يبرح جوارحه ، ويؤيد ذلك قصيدته « ساعة لقاء » عندما لاقى حبيبة صباه يقول :

درج الدهر وما أذكر بعدك غير أيامك ياتوأم نفسى

وأنا الطائر قلبي ماحبا لسوى غصنك والوكر القديم
ما تبدلنا ولا حال الصبا والهوى الطاهر والود الكريم
لم تزل ذكراه من بالى وبالك كيف ينسى القلب أحلام صباه!

أجل أحلام صباه وبيت الظلال وشجرة الجميز والحب الطفلى واعطار المسجد ، هى الخميرة الأولى التى غذت حياته الشعورية ، وجعلت منه الشاعر الوجدانى الأول فى مصر ، بل فى الشرق العربى بلا مراء .

وشاء القدر فى سخره أن يمهن هذا الشعورى المثالى الوثاب مهنة الطب ، وأن يودع دنيا الخيال إلى دنيا الواقع ، ويهجر دنيا الحلم إلى دنيا العمل . وكان عليه أن يوائم بين الحلم والحقيقة ، والمثالية والواقعية ، فاتكأ على نفسه كثيراً وآدها طويلا ليوائم بين هذه الدنا المتنافرة ، وأفلح فى الجمع بينها على حساب أعصابه المرهفة .

ودخل عالمه الجديد فبرز فيه بروزا عجيبا بفضل ذاكرته الخصبة . ولم يقف عند المعارف الطبية بل نهل ماشاء له أن ينهل من المعارف العلمية والفلسفية والسيكولوجية حتى أصبح كالموسوعة المتنقلة ، ودعته مغامراته إلى استخدام التحليل النفسى فى علاج مرضاه ، وإلى استخدام التنويم المغناطيسى فى مداواة بعض الأمراض المستعصية ، ولكنه أبطل استخدام الأخير فى عيادته ، عندما ثارت عليه الوسيطة وهى منومة .

وفى هذه الحقبة من حياته تعدلت شخصيته وعادلت بين قواها

الشعورية وقواها التفكيرية ، وبين مثاليتها ومادية الحياة ، وبين انطوائيتها فى الطفولة وانبساطيتها فى دنيا العمل ، وإنك لتراه قد جمع من خصال الانطوائى بعض خلاله، كحب العزلة والقوى الخفية والتأثر بالأحزان . والميل إلى التأمل ، ومن خصال الانبساطى بعض خلاله، مثل ميله إلى الاتصال بالناس ، والتحدث إليهم فى جرأة ولباقة .

ومع تعادل شخصيته فى منتصف حياته ، فقد كان الطابع الانطوائى أغلب عليه ، ولهذا عاش فى دنياه كالطائر الجريح يقطر دمه على التراب ، وهو يدف بجناحيه للصعود إلى السماء ،وها هو ذا يكشف لنا القناع عن طرف من هذا الصراع النفسى فى هذه الفترة يقول :

« شاء القدر أن أكون طبيبا ، وليس فى الطب من حرج وإنما الحرج أن يكون الخيال مركبا فى طبيعة إنسان ، فاذا القدر يواجهه بالواقع ويصدمه . . . إنما الحرج أن يكون الشعر مركبا فى طبيعة إنسان ، فاذا القدر يضعه فوق أسنة المادة ، ويزجه فى الدائرة التى لاشعر فيها ولا خيال » !

وهذا التعادل الذاتى لم يكن على حساب مبادئه الأصيلة ومعدنه النفسى ، فقد عاش فى جو العمل بروح الشاعر يقتنى المال وينفقه فى الخير ، ويجهد نفسه فى الطب والصحافة ، لا من أجل الجاه أو الشهرة الزائفة بل ليسعد ببسمة مريض أو يعثر على صورة أدبية جديدة أو

تقدير معنوى مجرد . عاش على المعنويات والأمانى ولم يعرف إلا السعادة الوهمية :

رى عمرى من أكاذيب المنى وطعامى من عفاف وضمير

وقد آدته آلام وهموم ولكنها لم تعد باطنه ؛ بل بقيت فى قراره ، وبدا للناس الباسم الضحوك الهاش ، الباش المرح الطروب . والعبرة فى الحكم على الشخصية بما تبدى للناس لا بما تخفى فى قرارة النفس ، ولهذا لا أوافق على أن ناجى كان مكتئباً متشائماً ، بل بالعكس كان طابعه : المرح والظرف والبشاشة .

أما ما كان يخفى من آلام ، وما كان يعج بنفسه من هموم فقد كان يرتفع عليها ، ويهزمها بوسائل ثلاث : باللجوء إلى الحب الحلال أو إلى الدعابة ، والنادرة الذكية ، أو إلى الشعر يتسامى به . ويفرح بإبداعه ، ففى رحاب الحب نسى ألمه :

هناك صلاة أحلامى وهـــذا الركن محرابى
به ألقيت آلامى وفيه طرحت أوصابى

وفى دنيا الدعابة تخلص من كظوم نفسه ؛ وفى النادرة الذكية دفع أوضار الحياة وأثقال الناس ، وقد كانت دعاباته ونكاته الذكية لا ينضب لها معين ، والدعابة أو النكتة كما هو معروف سيكولوجيا من بنات العقل الباطن ، وهى قطع من الفن الدقيق المنمم ، وإبداعها يشبه الإلهام ، ويهذبها الذكاء وقد استخدم هذا الفن فى عمله الحكومى ؛

وفى عيادته وفى خلواته، وفى محاضراته ومعاملاته.

ومن فكاهاته الذكية، أن صاحب العمارة التى يسكنها رفع عليه دعوى باخلاء الشقة التى يسكنها لأنه يريدها لأحد أولاده وهو على وشك الزواج، وهذا من حقه، ومثل ناجى أمام المحكمة فأستأذن القاضى قائلا :

« أريد أن أعرف لماذا اختارنى المالك بالذات دون سكان العمارة كلها. »

« فأجاب محامى المدعى : لأنك غنى ولك عمارة فى نفس الحى.
وسأله القاضى : أحقا تملك عمارة فى شبرا يادكتور ؟

فأجاب فى بديهة حاضرة : أنا مالك عمارة ؟ هو أنا مالك أعصابى؟
وضجت المحكمة بالضحك وتنازل المالك عن شكواه ! »

بمثل هذه الدعابات التى نبغ فيها ناجى، كان يخلص من آلامه وكظوم نفسه ويخرج من مأزقه !

هذه بعض خصائص شخصية ناجى، وهى أحجار السبيكة، أما لآلىء هذه السبيكة فهى مبثوثة فى شعره : شعره الرفاف النابض، الناطق بحيويته الدفاقة، طلاقة التعبير الدالة على تحرره وجرأته، ملكيته للعبارة الدالة على دقته واعتداده بكرامته وقوته التفكيرية، تصويره المتحرك الرفاف، الدال على نشاطه وقوة ابتكاره، تجاربه الشعرية العميقة الناطقة باخلاصه وصدقه وعمق نفسه وتجرده من

التصنع والافتعال ، أسلوبه الواضح التلقائى ، الدال على صراحة ونبوغ ، جل موضوعات شعره ذاتية تدل على انطوائيته وأنيته ، والقليل منها يدل على موضوعيته وإنسانيته .

هذه بعض خلال ناجى من لآلىء شعره ، ولا يتسع المجال لبيان شواهدها ، فالحديث فيها يطول ويطول .

وماذا أقول فى شخصية مثاليه ، شعورية مفكرة خسرت العالم وكسبت نفسها .

غزل ناجى

— ١ —

الغزليون فى الدنيا طابع من نوع خاص ، طابع عاطفى وجدانى تزخر قلوبهم بالعاطفة ، وتفيض بالوداعة ، وبالجمال .

طابع متوفز الأعصاب . مرهف الحساسية . سريع التأثر ، ينفرد بالحنان كأنما الحنان بئر صافية عميقة تروى جوانحهم طوال أعمارهم

ومن هذا الطابع كان إبراهيم ناجى . كانت عروقه . كما يقول لا تمتلىء دما . بل حنانا ، وحنينا .

فإن ملئت عروق من دماء   فإنا قد ملأناها حنينا

كان الحنان يعيش بقلبه ، ويلازمه ملازمة ظله ، حتى نراه يجسم الحنين إنسانا يعيش فى جوارحه يقتات من دمه ، ويهمس فى باطنه :

لم يرض غير شبيبتى ودمى زاداً يعيش به ويفنينى
كم ليلة ليـــلاء لا زمنى لا يرتضى خلا له دونى
ألقى له همساً يخـاطبنى وأرى له ظلا يمـاشينى

— ٢ —

وانفعال الحنو أو الحنان يندفع بصاحبه دائماً إلى الحب ، مع توافر اعتبارات نفسية واجتماعية . اندفاعا لا تثنيه إرادة ، ولا تعصمه

قريحة وقادة . اندفاعاً أشبه ما يكون تماما باندفاع الفراشة إلى النور الحبيب وإن نالت منه حتفها .

وليس أوصف لأثر الحب على الغزليين . فى اندفاعهم اليه ، من قول ناجى فى ديوانه « الطائر الجريح » :

كنت فى برج من النور على قمة شاهقة تغزو السحابا
وأمامك فراش ذائب فى لجين من رقيق الضوء ذابا
فرح بالنور والنار معاً طار للقمة محموما فآبا
آب من رحلته محترقا وهو لا يألوك حبا وعتابا

الرأس الكبير الكبير الذى ملىء علماً ومعرفة وزكانة . لم يستطع إلا إحناءه ، أمام جبروت الحب . كما أحنى رؤوسهم له علماء وساسة وأدباء وعباقرة ، ولا يزالون يحنون .

حتى حار العلماء والأدباء فى معرفة كنه هـــذا الجبار العنيد . أهرمون هو يسرى فى الغدد الصم أكهرباء هو ينساب فى الجهاز العصبى أم هو نفحة من نفحات الله ؟ كما يقول المتصوفة ، أم داء لاشفاء له كما يقول الأدباء .

لم يصل أحد إلى الكلمة النهائية فى هذا اللغز العجيب .

ولم يصل ناجى مثلهم إلى حل . فاضطر أن يركع فى محرابه ويخشع فى حضرته :

أحبك فوق ماعشقت قلوب ولا أدرى الذى ما بعد حبى

واعلم أن كلى فيك فان وعيني فيك ذائبة وقلبي
واعلم أن عندك من ينادى خفيا هاتفا وأنا الملبي
واعلم أن حبي ليس يشقى وبعدى ليس يجديني وقربى
ولما لم أجد للحب حلا هتفت به كما يرضيك سربى
وخذني حيث هند لا تبالى لأية غاية ولأى درب

— ٣ —

وإذا كان الحب ميلا اضطراريا مطلقا لدى المرهفين ، إذا كان شعوراً أقوى من النفس فى كثير من الأحيان . فإن له حافزاً عضويا لدى الجنسيين، وحافزاً نفسيا لدى المتعبين ، وحافزاً إنسانيا لدى الإنسانيين ، وحافزاً فنيا لدى الفنانين .

وقد كان الحب لدى ناجى ، من الحوافز النفسية والإنسانية والفنية على سواء كان من الحوافز التي أضفت على روحه الأمن والطمأنينة والسلام ، لروحه الغريبة عن دنياه ، ونفسه القلقة .

لم يكن حبا ماديا خليعا كحب امرىء القيس أو عمرو بن أبى ربيعة لم يكن حبا ساديا منحرفا كحب أبى نواس . لم يكن حبا مازوكيا ذليلا تتحطم عليه الكبرياء والشرف . بل كان حبا روحيا فيه جذل المتصوفة ، حبا فنيا ، يقصد إلى غنى التعبير الشعرى ، حبا إنسانيا ، أسال على قلبه عطفاً إلى عطف ورقة إلى رقة ، وإنسانية فوق إنسانية :

ذلك الحب الذى علمنى أن أحب الناس والدنيا جميعا

ذلك الحب الذى صور من جدب القفر لعينى ربيعا
إنه بصرنى كيف الورى هدموا من قدسه الحصن المنيعا
وجلا لى الكون فى أعماقه أعينا تبكى دماء لا دموعا

— ٤ —

كان الجمال باباً يلج منه إلى جوهر الروح ، وذكاء الذهن ، ولهذا نراه يزاوج بين الجمال والذكاء ، ويلشد فى الجمال الصفاء ، وهذه ظاهرة واضحة فى دواوينه الثلاثة . ففى ديوانه « ليالى القاهرة » يقول :

زرتنى والربيع فى موكب الزهر له روعة وفيه رواء
ولك الوجه أومض الحسن فيه والتقى السحر عنده والذكاء

وفى ديوانه « الطائر الجريح » يقول :

لا أنت تدرين وما من أحد بواصف حسنك مهما اجتهد
أو بالغ سر الذكاء الذى يكاد فى لحظك أن يتقد
أو مدرك عمق المعانى التى فى لمحة عابرة تحتشد
أو فاهم فن الصناع الذى أبدع الاثنين : الحجا والجسد

— ٥ —

وأبلغ شاهد على هذا التوجه الروحى . ما نلمسه فى كثير من قصائده بديوانه الأول « وراء الغمام » . فها هو ذا يلهج بالعيون ، ولا ينظر لجمالها بقدر ما ينظر لصفائها ، وينادى الروح لتغمره بظلالها

وأنه ليقول فى إبداع :

قربى عينيك منى قربى ظامئينى واغمرينى بصفاها
وأرينى هدأة البحر إذا بسط البحر جلالا وتناها
وأرينى لمحة السحر التى ضل فى أعماقها الفكر وتاها
ألمح اللؤلؤ فى أغوارها وأرى الطيبة تطفو فى سناها

ثم يواكب هذا بقوله فى آخر القصيد :

قربى روحك منى قربى ظامئينى واغمرينى برضاها
وتعالى حدثينى حدثى أنت مرآة شجونى وصداها

أى سحر وأية جاذبية وأية روحية فى مثل هذا الغزل ، بل أى حدث عظيم فى دنيا الأدب ، لا عهد للعربية به من قبل ، وأى غزل جديد انطوى على حيوية وحرارة ، وطلاقة بيانية ، وأى فن بالغ ذروة النضج ، وأية ابتداعية سليمة تمخض عنها شعر رائد جهير من رواد أبولو .

— ٦ —

لقد انتظر الغزليون حبائبهم فى قلق ، وتلدد ، ولاقى المحبون حبائبهم فى فرحة وإيناس ، وودعوهن فى حسرة ولوعة ، ثلاثة مشاهد تتعاقب على الغزلى تعاقب الفجر والضوء والظلام عبروا عنها ، ولكن أحداً — إلا النوادر — أبدع فى التعبير عنهـــا كما أبدع ناجى فى حيوية وموسقة وإبداع تصوير .

أجل وقف الغزليون ينتظرون فى شوق لاهب ، وصبر نافد ،

حبائبهم ، ولكن القليل منهم . بل النادر من استطاع أن يحلل عواطفه وانفعالاته المتراوحة بين الأمل واليأس ، والخشوع والكبرياء ، والإيضاء ، والانطفاء ، كما عبر ناجى وهو ينتظر تحت العاصفة ، وفى البرد والظلام ، فى قصيدته « الانتظار » التى جاء فيها قوله :

أرى الآباد تغمرنى كبحر سحيق الغور مجهول القرار
ويأتمر الظلام على حتى كأنى هابط أعماق غار
وتصطخب العواصف ساخرات وتطعننى بأطراف الحراب
وتشفق بعد ما تقسو فتمضى لتقرع كل نافذة وباب
فصحت بها إلى أن جف حلقى فحين سكت كلمنى إبائى
وأشعرنى العذاب بعمق جرحى وأعمق منه جرح الكبرياء

— ٧ —

والتقى الغزلون فى فرحة وبهجة ، وعبروا عن اللقاء تعابير مختلفة ولكن القليل من عبر عن هذه الفرحة مثلما عبر ناجى فى مثل قوله .

مرت الساعة كالحلم السعيد ومشت نشوتها مشى الرحيق
ذهب العمر وذا عمر جديد عشته من فمك الحلو الرقيق
مرت الساعة والليل دنا والهوى الصامت يغدو ويروح
وتلاشت واختفت أجسادنا واعتنقنا فى الدجى روحا بروح

— ٨ —

وودع المودعون حبائبهم ، وداعا باكيا ومؤثرا ، وأحسب أن أحداً منهم لم يعبر عن نفسه كما عبر ناجى . وقد رأى دمعة تسيل من

بينها على خدها فقال :

وماراع قلبي منك إلا فراشة من الدمع حامت فوق عرش من الورد
مجنحة صيغت من النور والندى ترف على روض وتهفو إلى ورد
بها مثل ما بي يا حبيبي وسيدى من الشجن القتال والظمأ المردى
لقد أقفر المحراب من صلواته فليس به من شاعر ساهر بعدى
وقفنا وقد حان النوى أى موقف نحاول فيه الصبر ، والصبر لا يجدى

— ٩ —

يا له من تصوير حى رفاف فى موقف الوداع ، تصوير الدمعة الفراشة صيغت من النور والندى . تلثال على الخد كما ترفرف الفراشة إلى الورد ، وأى تحليل بارع . تحليل لشتى الانفعالات المتصارعة فى موقف الانتظار ، وأية معان جديدة عند « اللقاء » معانى الصفاء فى العيون ، والطيبة فى المقل ومعانقة الروح للروح ، وأية إيقاعات ساوقة لتنوع الانفعالات .

وإذا اكتفينا بهذه الدرر الثلاث ، وتركنا مثيلات لها فى دواوينه الثلاثة ، لكانت شواهد كافية ناطقة بألمعية شعره ونضج فنه ، وشفافية روحه ، وروحانية غزله ، وعفويته .

ولكانت كفيلة هى وأخوات لها لا تقل عنها جاذبية وفتنة ، من وضع اسمه فى القمة بين شعراء الغزل الخالدين .

شاعرية ناجى وشعره

كان ناجى ظاهرة شعرية فريدة ، بهرت بيئتنا الأدبية فى مطلع الثلث الثانى من هذا القرن ، شاعرية مجددة نفرت من القوالب القديمة ، وازورت عن شعر القريحة ، شاعرية غنائية وجدانية مبدعة .

وعندما يسطر النقد الأدبى الصادق ، فسوف يسجل بمداد من ذهب أثر ناجى الأدبى البارز ، فى فن الشعر الشرقى المعاصر .

سوف يسجل له إبداعه التعبيرى ، وصدقه الوجدانى ، وهما جناحا الشاعر النابغة على ولاء العصور .

أما إبداعه التعبيرى ، فيمثل فى لفظه النقى المختار ، وإيقاعه المتوائم مع الانفعال ، وخياله الرفاف الوثاب ، ووحدته العضوية ؛ ولفتاته الذهنية الذكية ، وأصدائه ذات الرجع البعيد فى ذروة القصيد.

فألفاظ ناجى ؛ ليست بهرجا ولا زينة ، ولكنها لبنات لتجربته الشعرية ، لها جرسها ، ولها صورها ، ولها معانيها .

ياحبيبى غيمة فى خاطرى وجفونى وعلى الأفق سحابة

فلفظه غيمة التى استعملها هنا ، يحدث بها صورة مرئية ؛ والياءات الأخيرة فى حبيبى ، وخاطرى ، وجفونى ؛ يحدث بها إيقاعات محببة ؛ وعبارة : على الأفق سحابة ، عبارة تقوى الجو الذى يريد نشره ، جو الحزن الذى يظلل نفسه .

وأبرز ميزة لناجى هى تصويره الرفاف الحى . كقوله :

لذعتنى دمعة تلفح خدى . . .

وقوله عند وداع حبيبة :

شفتى موتورة ظمآنة جنت جنونا

وتصويره لقلبه المختلج المضطرب :

خفق القلب له مختلجا خفقة المصباح إذ ينضب زيته

وتصويره الرائع لدار أحبابه التى عبث بها البلى :

والبلى أبصرته رأى العيان ويداه تنسجان العنكبوت

وتصويره لدمعة الحبيبة الجارية على خدها بالفراشة الحائمة على الورد :

وما راع قلبى منك إلا فراشة

من الدمع حامت فوق عرش من الورد

ووصفه لقلب العظيم فى ألمه بالياقوتة الحمراء التى تزكو بالنار :

إن قلب العظيم ياقوتة تسمو سموا وتزدهى بالنار

أى شىء فى الدهر كالألم الجبار يجلو ضمائر الأحرار

وتصويره لسير الملل المتئد بالسلحفاة :

عجبا للعمر يمضى مسرعا للمنايا سلحفاة الملال

فى هذه الصور وأمثالها وأشباهها ، نجد ناجى فى تصويره

لا يلجأ إلى التشبيه، بل إلى الاستعارة، فهو لا يقول إن قلبي يخفق كالمصباح الذي نضب زيته، ولا يقول: إن البلى خيم على الدار كنسيج العنكبوت ولا الملل يسرى كالسلحفاة، بل ترك أدوات التشبيه؛ ولاذ إلى الاستعارة. وهذا فن من فنون التعبير وقوته، لا يدرك سره إلا الشاعر الفنان.

* * *

ويقول المنصفون إن تفنن ناجى الموسيقى، بلغ الذروة، وقد تأثر موسيقاه كثير من شعراء الشرق، فإيقاعات ناجى الموسيقية تساير معانيه وتتلون بانفعالاته وعواطفه، رقيقة حنون عند هدوء الانفعال وثائرة عالية الجرس في ثورة نفسه وغضبتها، وقد تميز كثير من شعره بالنبضات والتصعيدات، كمثل قوله فى قصيدة العودة:

رفرف القلب بجنبي كالذبيح   وأنا أهتف ياقلب اتئد

ومثل قوله فى قصيدته الأطلال:

أعطنى حريتى أطلق يدى   إننى أعطيت ما استبقيت شيّ
آه من قيدك أدمى معصمى   لم أبقيه وما أبقى علىّ

ثم يهدأ انفعاله قليلا بعد ثورته فيقول:

ما احتفاظى بعهود لم تصنها   وإلام الأسر والدنيا لدى
هاأنا جفت دموعى فاعف عنها   إنها قبلك لم تبذل لحى

فهنا نلمس تراوح الشاعر بين الإيقاع المرتفع عند غضبته

والايقاع الخافت عند سكون نفسه .

ولا أستطيع أن أقاوم الرغبة فى الكشف عن سر من أسرار فن ناجى الشعرى ، هو براعته فى إثارة الإصداء فى ثنايا بعض قصائده وفى ذرواتها ، وفى هذا مافيه من بعث الإيحاءات فى النفس ، وشواهد ذلك نجـــدها فى مثل قوله فى قصيدة العودة التى يصف فيها دار أحبابه الخاوية :

أنكرتنا وهى كانت إن رأتنا   يضحك النور إلينا من بعيد

وقوله فى آخر قصيدته « رسائل محترقة » وهو يصف قلبه بعد حرق رسائل حبيبة انحرفت :

وبكى الرماد الآدمى   على رفات رمادها

وكقوله فى قصيدته الرائعة «شكوى الزمن» التى استهلها بقوله :

ياويلتا من عمرى الباقى   هـذا سواد تحت أحداق

واختتمها بقوله :

عوا وأنت تظنهم سكروا   مات الندامى أيها الساقى

أو فى قوله فى قصيدته « رواية » :

هو مسرح وانفض ملعبه   لم يبق لاغعين ولا أثر

ورواية رويت وموجزها   صحب قضوا وأحبة هجروا

عبروا بها صورا فمنذ عبروا   ضحك الزمان وقهقه القدر

هذه ثمرات من فن ناجى التعبيرى ، أما محتواه العاطفى ، فهو محتوى أصيل صادق ، عبر عنه فى معانى مطلقة أو تحليلية ، وشواهد ذلك نجدها فى مثل قصيدته (الانتظار) التى يصف فيها حالته النفسية وهو فى انتظار إحدى حبيباته فى جو عاصف قر وليل مظلم ، وقد حلل فيها خواطره تحليلا دقيقا مجسما ، وقد أتينا بشىء منها آنفا والتى استهلها بقوله :

أرى الآباد تغمرنى كبحر سحيق الغور مجهول القرار
ويأتمر الظلام على حتى كأنى هابط أعماق غار
وتصطخب العواصف ساخرات وتطعننى بأطراف الحراب

* * *

ونكتفى بهذا القدر فى التعريف بشاعرية ناجى المجنحة وألمعيته الفنية ، هذه الألمعية التى سوف تكتب لشعره البقاء والخلود .

الشابي الرجل والشاعر

١٩٠٩ — ١٩٣٤

ابو القاسم الشابى

— ١ —

عاش كعمر الورود ، التى ملأ ذكرُها أشعاره ، وغنى للدنيا أغانى عذبة فريدة ، لا تزال أصداؤها ترن فى الآذان ، وبرز فى سماء بلاده كالشهاب ، واختفى ولا يزال بريقه يأخذ بالأبصار . ذلكم هو الشاعر النابغة أبو القاسم الشابى ، شاعر تونس الخضراء ، الذى سبق جيله بأجيال ، والذى عاش غريبا فى بلاده ، ككل نابغة ، ومات بعد أن خلف وراءه تراثا أدبيا فنيا رفع به ذكرها ، وأعلى صوتها فى البلاد العربية .

وليس فيما كتب عنه إلى اليوم ما يمد الدارس بمادة صالحة لدراسة شخصيته دراسة وافية ، ولهذا لن نجد فى دراسة هذه الشخصية مايسعفنا إلا تعمق أشعاره ، لمحاولة إبراز صورة قريبة منها ، وأشعاره جزء لا يتجزأ من شخصه ، بل هى قصة حياته وصورة وجوده ، كما يقول فى قصيدته « قلت للشعر »(١) :

---

(١) ديوانه « أغانى الحياة » ص ٨٦

أنت يا شعر فلذة من فؤادى تتغنى ، وقطعة من وجودى
فيك ما فى جوانحى من حنين أبدى إلى صميم الوجود
فيك ما فى خواطرى من بكاء فيك ما فى عواطفى من نشيد
فيك ما فى طفولتى من سلام وابتسام وغبطة وسعود
فيك ما فى شبيبتى من حنين وشجون وبهجة وصمود
فيك يبدو خريف نفسى ملولا شاحب اللون عارى الأملود
فيك يمشى شتاء أيامى البا كى وترغى صواعق ورعودى
وتجف الزهور فى قلبى الدا جى وتهوى إلى قرار بعيد

— ٢ —

فشعره كما يقول صورة من نفسه ، ومن حياته ، طفولة مرحة راضية ، وشباب يسوده الألم والشجن ، ونهاية مُشجية مريرة .

شعره شعر غنائى وجدانى فى أغلبه ، يكشف عن طابع شعورى منطو ، طابع يميل إلى العزلة وإلى التأمل ، واستبطان النفس ، والابتعاد عن الناس ، والاندماج مع أحياء الطبيعة ، والعيش مع الجمال والحب والفن عيشة روحية زاهدة متصوفة سعيدة . وإنه ليقول كما تشير قصيدته « الغاب »(١) .

فى الغاب ، فى تلك المخاوف والربا وعلى التلاع الخضر والآجام

---

(١) ص ١٨٨ من الديوان

كم من مشاعر حلوة مجهولة سكرى ومن فكر ومن أوهام
غنت كأسراب الطيور ورفرفت حولى وذابت كالدخان أمامى
فى الغاب ، فى الغاب الحبيب وإنه حرم الطبيعة والجمال السامى
طهرت فى نار الجمال مشاعرى ولقيت فى دنيا الخيال سلامى
ونسيت دنيا الناس فهى سخافة سكرى من الأوهام والآثام
وقبست من عطف الوجود وحبه وجماله قبسا أضاء ظلامى

ولكم أحب أن يحيا هذه الحياة التأملية الروحية ، ولكن أبت عليه الحياة أن يعيش هذه العيشة الحالمة كما أبى ضغط الحياة ووطأتها إلا الاستبداد بما يحبه الفنان ، وإنه ليعبر عن ذلك فى جملة من قصائده نذكر منها قصيدته « أحلام شاعر »(١) وقصيدته « قيود الأحلام »(٢) التى جاء فيها قوله :

وأود أن أحيا بفكرة شاعر فأرى الوجود يضيق عن أحلامى
إلا إذا قطعت أسبابى مع الد نيا وعشت لوحدتى وظلامى
فى الغاب ، فى الجبل البعيد عن الورى
حيث الطبيعة والجمال السامى
وأعيش عيشة زاهد متنسك ، ما إن تدنسه الحياة بذام
لكننى لا أستطيع فإن لى أمًّا يصد حنانها أوهامى
وصغار إخوان ، يرون سلامهم فى الكائنات معلقا بسلامى

---

(١) ص ١١٤ (٢) ص ١١٥

عقدر الأب الحانى فكنت لضعفهم كهفاً يصد غوائل الأيام
ويقيهم وهج الحياة ولفحها ويذود عنهم شرة الآلام

وهكذا تقيدت حرية هذا الفنان بأعباء المادة ، كما هو حال كل فنان نابغة .

— ٣ —

وقوى هذا النزوع الوجدانى لديه حب عذرى طاهر فى الصغر ، حب أنعش فؤاده ، وأرهف عواطفه ، وزكى ذهنه ، حب حقيقى كما تقول الأديبة نعمات فؤاد(١) لاحب تجريدى كما راح فى وهم الواهمين من الكتاب ، وإنه ليشير إليه فى قصيدته البديعة « جدول الحب »(٢) حيث يقول :

بالأمس قد كانت حياتى كالسماء الباسمه
واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجمه
قد كان لى ما بين أحلامى الجميلة جدول
يجرى به ماء المحبة طاهراً يتسلسل
هو جدول قد فجرت ينبوعه فى مهجتى
أجفان فاتنة أرتنيها الحياة بشقوتى
أجفان فاتنة تراءت لى على فجر الشباب
كعروسة من غابات الشعر فى شفق السحاب

---

(١) كتاب « شعب وشاعر » (٢) صـ ٦٩ من الديوان

ثم اختفت خلف السماء ، وراء ها تيك الغيوم
حيث العذارى الخالدات يمسن ما بين النجوم

وكم ترنم بهذا الحب طوال حياته ، وبكى الحبيبة العذراء التى انطفأ سراجها قبل الأوان ، وعد هذا الحب أثمن كنوزه ، فهو خير لديه من الجاه والمال والمجد ، وها هو ذا يذكر الأمس الباسم فيذكر حبه الغالى ، ولا يجد شيئاً فى الحياة أهم منه ، وإنه ليبكيه وهو يخاطب الأمس فى قصيدته « أنا أبكيك للحب » :

إنما أبكيك للحب الذى كان بهاه
يملأ الدنيا ، فأنى سرت فى الدنيا أراه
فإذا ما لاح فجر ، كان فى الفجر سناه
وإذا غرد طير ، كان فى الشدو صداه
وإذا ما ضاع عطر ، كان فى العطر شذاه
وإذا ما رف زهر ، كان فى الزهر صباه
فهو فى الكون جمال ، يملأ الدنيا ضياه

ويعاود وصف هذه الحبيبة فى قصيدته الرائعة : « تحت الغصون »(١) ، فيذكر ما سباه منها : عيناها المضيئتان ، وشفتاها الحزينتان ، وصوتها الشجى ، وروحها العطر ، ويذكر لقاءها معه فى خمائل الغاب . تحت الزان والسنديان والزيتون ، ويصور هذا

---

(١) ص ١٧١ من الديوان

اللقاء تصويراً حياً رفافاً ، قل أن نجد نظيره فى أدب الغزل العربى ؛ والقصيدة شهية متماسكة ، والقطف منها يضيع جمالها وبهاءها ، وقد استهلها بقوله :

هاهنا فى خمائل الغاب تحت الزان	والسنديان والزيتون
أنت أشهى من الحياة وأبهى	من جمال الطبيعة الميمون
ما أرق الشباب فى جسمك الغض	وفى جيدك البديع الثمين
وأدق الجمال فى طرفك الساهى	وفى ثغرك الجميل الحزين
وألذ الحياة حين تغنين	فأصغى لصوتك المحزون
وأرى روحك الجميلة عطراً	ضائعاً فى حلاوة التلاحين !

— ٤ —

وإذا كان الطفل أب الرجل كما يقول المثل الإنجليزى ، فإن طفولة الشابى وما وقع فى غضونها تحدد اتجاهه فى الحياة ، وإذا عزت علينا أنباء طفولته ، فإن قصيدته الباهرة « الجنة الضائعة »(١) هى وثيقة شعرية ثمينة تمدنا بكثير من أعماله فى طفولته ، وتكشف عن اتجاهه فى الحياة ، وفى هذه القصيدة يتجلى نزوعه الوجدانى : حبه للحبيبة ، وحبه لبنات الطبيعة وأبنائها ، كما تكشف عن أعماله فى عرابها ، وألعابه فيها ، وهذه الناحية الأخيرة من الأهمية بمكان للباحث السيكولوجى ، فهو يذكر ألعابه وبدواته ، وهو يتسلق الجبل ، ويقطف الزهر ، ويركض وراء الفراش ، ويعبث عبثاً بريئاً بالسائل

(١) ص ١٤٧ من الديوان

الأعمى ، والشيخ الكبير ، والقطة البيضاء ، والشاه الوديعة ، ويلهو ببناء الأكواخ تحت أعشاش الطيور ، ويسقفها بالعشب وورق الزهر النضير ، ثم تأتى الرياح فتهدم بناءه ، فلا يغضب ، ولا يثور ، وهذه الأُلهيات وما تضمنتها من حقائق ، تكشف عن حبه للبناء ، وحبه للأناقة فى البناء ، وهى فطرة جبل عليها ، وبرزت واضحة فى شعره الأنيق الذى لا يجارى فى أناقته ، وفى هذه القصيدة الفذة يقول :

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل ، وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور بين جداول الماء النمير
أيام لم نعرف من الدنيا سوى مرح السرور
ونتبع النحل الأنيق ، وقطف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكلل بالصنوبر والصخور
وبناء أكواخ الطفولة تحت أعشاش الطيور
مسقوفة بالورد والأعشاب والورق النضير
فنبنى فتهدمها الرياح فلا نضج ولا نثور
ونعود نضحك للمروج وللزنابق والغدير

إنه يبنى فى أناقة ، فيسقف بالورد والزهر النضير ، فإذا ما هدمت الرياح ما بناه لم يغضب ولم يثر بل يعاود الضحك للمروج والزنابق ، والغدير ديدن الفنان المتزهد الذى لا يحزن إذا فقد عرضا من الأعراض وإن كان غاليا عنده ، بل يتقبل الحياة بروح الرواقى المتنوع .

— ٥ —

ولقد اقترنت نزعته الوجدانية المنطوية بمزاج حاد ، وحساسية يقظة مرهفة ، كانت سبب عذابه وشقائه ، ومصدر قلقه ومخاوفه ، وهذا القلق جعله يغالى فى تقدير همومه ومشاكله ، ويثور لما يقع له من أحداث تافهة أو خطيرة ، ومن آيات هذا القلق الحاد ، كما يقول السيكولوجيون حساسيته الشديدة بل الخارقة للصوت والضوء ؛ وهذا ما نجده بارزاً فى جل قصائده التى لم تخل من الصور الصوتية والضوئية ، بل أن بعض القصائد بنيت من صورة صوتية كما نشهد فى مثل مقطوعته « الحياة »(١) التى اشتملت كلها على الأصوات : القيثارة ، واللحون ، والنغم والصدى وقد جرت كالآتى :

إن هذى الحياة قيثارة الله وأهل الحياة مثل اللحون
نغم يستبى المشاعر كاللحن وصوت يخل بالتلحين
والليالى مغاور تلحد اللحن وتقضى على الصدى المسكين

ولقد عبر عن هذا الحس المتوفز فى قصيدته المتوترة العصبية « إلى الله » وفى هذه القصيدة جماع شكه ، وقلقه ، وخوفه ؛ وتوتره ، وهى وثيقة شعرية على غاية من الأهمية فى تعرف شخصيته فى السن الحرجة والتى يتوزع فيها المرء بين الشك واليقين ، واليأس والأمل ، وفيها يخاطب الله بقوله :

(١) ص ٩٨ من الديوان وما بعدها .

أنت أنزلتنى إلى ظلمة الأرض وقد كنت فى صباح زاه
كالشعاع الجميل أسبح فى الأفق وأصغى الى خرير المياه
وأغنى بين الينابيع للفجر وأشدو كالبلبل التياه
ثم خلفتنى وحيداً فريداً بين داع من الرياح وناه
أنت جبلت بين جنبى قلبا سرمدى الشعور والإنتباه
أنت عذبتنى بدقة حسى وتعقبتنى بكل الدواهى
بالمنايا تغتال أشهى أمانى وتؤذوى محاجرى وشفاهى
فإذا من أحب حفنة ترب تافه ، من ترائب وجباه

ثم تشتدتوترات نفسه ، شدة مخيفة ، تخرجه عن طوره ، وتكشف عن عصابيته فيقول فى آخر هذا القصيد :

خبرونى ، هل للورى من إله راحم - مثل زعمهم أواه
يخلق الناس باسما ، ويواسيهم ويرنو لهم بعطف إلهى
ويرى فى وجودهم روحه السامى وآيات فنه المتناهى
إننى لم أجده فى هاته الدنيا فهل خلف أفقها من إله

ولكنه بعد هذه الثورة النفسية تهدأ نفسه ، وتسكن توتراته ، ويعود إلى صفاء روحه وإيمانه ، تائباً مستغفراً فيقول :

ما الذى قد أتيت يا قلبى الباكى ! وماذا قد قلته يا شفاهى
يا إلهى قد أنطق الهم قلبى بالذى كان فاغتفر يا إلهى
قدمُ اليأس والكآبة داست قلبى المتعب الغريب الواهى
فتشظى وتلك بعض شظاياه فسامح قنوطه المتناهى

فهو يا رب معبد الحق والإيمان والنور والنقاء الإلهي

— ٦ —

فلا غرو إذا رأينا هذا الذكي الحساس ، يتبدل حاله ، وينقلب مزاجه ، ويتوشح وجهه بالعبوسة والكآبة ، لما دهمه من أحداث في ريعان شبابه ، وأهم هذه الأحداث موت الحبيبة ، الذي نشر على قلبه سحابات الأسى ، وأبعد عنه رؤى الجمال والإلهام ، تلكم الحبيبة التي طالما ناجاها في شعره ، وأبان سعادته في جوارها كما تشهد بذلك قصيدته « الذكرى » التي يقول فيها :

كنا كزوجي طائر في دوحة الحب الأمين
نتلو أناشيد المنى بين الخمائل والغصون
متغردين مع البلابل في السهول وفي الحزون
ملأ الهوى كأس الحياة لنا وشعشعها الفتون
حتى إذا كدنا نرشف خمرها ، غضب المنون
فتخطف الكأس الخلوب ، وحطم الجام الثمين
وأراق خمر الحب في وادي الكآبة والأنين

وأعقب هذا موت الأب ، ففقد بموته الأمن والسعادة ، والانطلاق ، وكادت تتمزق أعصـ ، إثر هذا الحادث ، وقصيدته « ياموت »(١) التي دبجها بعد موت أبيه ، تكشف

(١) صـ ٩٥ من الديوان

عن لوعته اللاهبة لهذا الفراق ، وفيها يقول :

يا موت ! قد مزقت صدرى وقصمت بالأرزاء ظهرى
ورميتنى من حالق وسخرت منى أى سخر
فلبثت مرضوض الفؤاد أجر أجنحتى بذعر
ورزأتنى فى عمدتى ومشورتى فى كل أمر
وهدمت صرحاً لا ألوذ بغيره وهتكت سرى
ففقدت روحاً طاهراً شهماً يجيش بكل خير
وفقدت ركنى فى الحياة ورايتى وعماد قصرى

وهذان الحادثان ، موت الحبيبة ، وموت الوالد ، يكفيان لتحطيم مثل هذا الحساس ، وإذا كان موت الحبيبة كما يقول الأستاذ السنوسى فى كتابه أصابه بصدمة قلبية ، فما بالنا بموت الأب ، وهو كارثة أدهى وأعظم ، إنه بلا ريب قد أحدث انهياراً عصبيا له .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، ولكنه نكب ببيئة جاحدة جامدة ، أزرت على أدبه وشعره ، وهما كل ثروته ، وأربى هذا الموقف من متاعبه العصابية . وقد كشف لنا الأستاذ كرّو فى كتابه(١) عن نفوره ولعاسته من هذه البيئة ، وكظومه النفسية فيها ، إذ يقول فى يومياته :

« إننى طائر غريب بين قوم لا يفهمون كلمة واحدة من لغة

---

(١) كتاب « كفاح الشابى » صـ ٥٥ ، للأستاذ أبو القاسم محمد كرو .

نفسه الجميلة ، ولا يفقهون صورة واحدة من صور الحياة الكثيرة التى تتدفق بها موسيقى الوجود فى أناشيده ، والآن أيقنت أنى بلبل سماوى قذفت به يد الألوهية فى جحيم الحياة ، فهو يبكى وينتحب بين أنصاب جامدة لا تدرك أشواق أنات قلبه الغريب ، وتلك مأساة قلبى الدامية » .

وحقيقة كانت هذه مأساة هذا الحساس الغريب فى دنيا الأحياء ، فموت الحبيبة قد يندمل ، وموت الأب قد يشفيه الزمن ، أما انتقاص فن شاب نابغة يشعر بقيمة نفسه ، وعلو مكانه ، فيعد من الصدمات العنيفة التى جرحت مشاعره جرحاً بليغاً لا يندمل .

وقصيدته « الأشواق التائهة »(١) تؤيد هذه الحقيقة وفيها يقول :

يا صميم الحياة ! كم أنا فى الدنيا غريب ! أشقى بغربة نفسى
بين قوم لا يفهمون أناشيدى ، ولا معانى بؤسى
فى وجود مكبل بقيودٍ ، تائه فى ظلام شك ونحس
فاحتضنى وضمنى لك ـ كالماضى ـ فهذا الوجود علة يأسى

— ٧ —

ثلاثة أحداث جسام تواكبت على نفسه الحساسة ، فوشحت فؤاده بالقتامة والجهامة ، وأزادت من عصابيته فى فترة طويلة من فترات حياته ، ولونت طائفة من قصائده بلون أسود قاتم ، ومن هذه

---

(١) صـ ١١٢ من الديوان .

القصائد : الكآبة المجهولة (ص ٢٣ من الديوان) ، والسآمة (ص ٤٤) ، وأغنية الأحزان (ص ٤٧) ونشيد الأسى (ص ٨٣) - وشجون (ص ١٠٨) . وغيرها من القصائد .

وقد جلبت له هذه المتاعب والآلام مرض تضخم القلب الذى أصيب به ، كما يقول أخوه محمد الأمين الشابى فى مقدمة الديوان ، بعد مرض والده ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره(١) ، وإلى هـذا المرض يعزى لقاسته من الحياة فى هذه الفترة ، ونشـدانه الموت فى بعض قصائده ، وأهم هذه القصائد قصيدته الرائعة : « فى ظل وادى الموت »(٢) .

وهذه القصيدة شهيدة على قلقه البالغ ، هذا القلق الذى قلنا إنه يزيد مرارة المرء ، ويهـدم أمله فى بناء حياة هادئة ، ويجعله كما يقول أدلر فى كتابه « فهم الطبيعـة البشرية » يفـكر دوماً فى المـاضى ، وفى الموت .

وفيها يذكر ماضيه ، وما شرب من كؤوس الغرام التى تحطمت ، والشباب الغرير الذى ولى ، والدموع التى ذرفها مما جعله ينادى الموت ، ليجربه بعد أن جرب الحياة ، فلم يلق فيهـا إلا الأسى والألم والدموع ، وفيها يقول .

قد رقصنـا مع الحياة طويلا . .
وشـدونا مع الشباب سنينا

---

(١) مقدمة الديوان ص ١١ (٢) ص ١٤٣ .

وعدونا مع الليالى حفاةً
فى شعاب الحياة حتى دمينا
وأكلنا التراب حتى مللنا
وشربنا الدموع حتى روينا
ونثرنا الأحلام والحب والآلام
واليأس والأسى حيث شينا

* *

ثم ماذا ؟ هذا أنا : صرت فى الدنيا
بعيداً عن لهوها وغناها
فى ظلام الفناء أدفن أيامى
ولا أستطيع حتى بكاها
وزهور الحياة تهوى بصمت
محزن مضجر ، على قدميا
جف سحر الحياة ، يا قلبى الباكى
فهيا نجرّب الموت . . هيا !

— ٨ —

ومن حسن الحظ أن الشابى لم تتجمد روحه على هذه النزعة الحزينة القاتمة ، ولكنه فى أواخر أيامه ، عاد إلى نفسه يتأملها ، ونهض نهضة روحية جديدة ، فارتفع على آلامه وأخذ يذوبها واحداً إثر واحد ، بإرادة جديدة واستعلاء منقطع النظير ، فذوب حزنه على فراق

أبيه ، ولوعته على فقد الحبيبة ، وقاوم البيئة الجاحدة ، واستعلى على مرضه العضال ، وتفتحت روحه للحياة ثانية ، كما كانت فى أيام الطفولة . وهذه العملية السيكولوجية العجيبة التى مارسها الشابى ، قد بعثته بعثاً جديداً ، وأعادت إليه شفافيته الأولى .

ونحن نكاد نلمس هذا التحول السوى إذا تعمقنا قراءة قصائده . وأول قصيدة دالة على هذا التحول الجديد قصيدته « الاعتراف »(١) وهى تروى كيف تغلب على محنته بوفاة أبيه ، وعودته إلى الحياة بقلب خافق للحب والفرح ، وفيها يقول :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبى ومشاعرى عميـــاء بالأحزان
أنى سأظمأ للحيـاة وأحتسى من نهرها المتوهج النشوان
وأعود للدنيا بقلب خافق للحب والأفراح والألحان
ولكل ما فى الكون من صور المنى وغرائب الأهواء والأشجان
حتى تحركت السنون وأقبلت فتن الحياة بسحرها الفتان
فإذا أنا ما زلت طفلا مولعاً بتعقب الأضواء والألوان
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها ضرب من البهتان والهذيان

وفى هذا الطور التحولى الذى وجد فيه نفسه ، عرف أن التشاؤم ضرب من الهذيان ، وأن الحيـاة مليئة بالسحر ، وأن من واجب الإنسان الذى يحس ببشريته ، أن يحتسى من نهرها المتوهج ، وسبيل ذلك هو إذابة شجونه وأساه ، ودفن همومه وآلامه ، وقد أعرب عن

---

(١) ص ١٨٢ من الديوان .

فقال فى قصيدته « الصباح الجديد »(١) :

اسكنى يا جراح واسكتى يا شجون
مات عهد النواح وزمان الجنون
وأطل الصباح من وراء القرون

* * *

فى فجاج الردى قد دفنت الألم
ونثرت الدموع لرياح العدم
واتخذت الحياة معزفاً للنغم
أتغنى عليه فى رحاب الزمان

واختتمها بقوله :

الوداع الوداع ! يا جبال الهموم
يا ضباب الأسى يا فجاج الجحيم
قد جرى زورقى فى الخضم العظيم
ونشرت القلوع فالوداع ! الوداع

* * *

وفى هذا القصيد المتحرك الرفاف ، يودع آلامه وهمومه ، وفترة نواحه وجنونه . ولم يقف عند هذا ، بل إنه ليرتفع على دائه العضال وعجزاً بالبيئة الجامدة ، ويسجل هاتين الحقيقتين فى قصيدته « نشيد

---

(١) ص ١٥٩ من الديوان

الجبار ،(١) التي يقول فيها :

ساعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة ، هازئاً ... بالسحب والأمطار والأنواء
وأقول للقدر الذى لا ينثنى ... عن حرب آمالى بكل بلاء
لا يطفىء اللهب المؤجج فى دمى ... موج الأسى وعواصف الأرزاء

ويقول :

سأظل أمشى رغم ذلك عازفاً ... قيثارتى مترنماً بغنائى
أمشى بروح حالم متوهج ... فى ظلمة الآلام والأدواء
النور فى قلبي وبين جوانحى ... فعلام أخشى السير فى الظلماء

ثم يقول :

وأقول للجمع الذين تجشموا ... هدمى وودوا لو يخر بنائى
ورأوا على الأشواك ظلى هامداً ... فتخيلوا أنى قضيت ذمائى
ومضوا يمدون الخوان ليأكلوا ... لحمى ويرتشفوا عليه دمائى
إنى أقول لهم ـ ووجهى مشرق ... وعلى شفاهى بسمة استهزاء
إن المعاول لا تهد مناكبي ... والنار لا تأتى على أعضائى
فارموا إلى النار الحشائش والعبوا
يا معشر الأطفال تحت سمائى

* * *

(١) الديوان صـ ١٧٩

— ٩ —

هذه شواهد قوية ، على تفريغ ما كابده من آلام ، وما ناشه من هموم وشجون ، تغلب عليها بقوة التسامى والتفوق والاستعلاء ، واتخذ من مظاهر الطبيعة الحية وانجذابه إليها ، مصدر وحيه ، وحافز تحوله الجديد ، وقصيدته الفريدة « إرادة الحياة »(١) تكشف عن هذا التحول وتقص علينا خوافزه ؛ فالريح المدمدمة فوق الجبال وتحت الشجر ، أثارت بقلبه دماء الشباب ، وأوحت إليه صعود الجبل ومواجهة الصعاب ، والأرض الطيبة همست فى أذنه بأنها تبارك أهل الطموح وتلعن من لا يساير الزمن ، ويقنع بالعيش عيش الحجر والغاب وسوس له فى ليلة من ليالى الخريف ، بأنه بعد انطفاء السحر ، سحر الغصون وسحر الأزهار والثمر ، وسقوط الغصون والأوراق ، تبقى البذور تحلم بأغانى الطيور ، وعطر الزهور وطعم الثمر ، حتى يأتى الربيع الشذى الخضر ، وإذا ما وافى الربيع بأنغامه وأحلامه وصباه العطر ، قبّل الأرض وأزهر البذر ، وأفاء على الكون الجمال وحتى الليل عند ما يأتى يشى بالخيال الخصب ويذكى الفكر ، ويمد على الكون سحراً غريباً ، ويرن فى الفضاء نشيد الحياة المقدس : بأن الطموح لهيب الحياة وروح النصر ، فإذا طمحت النفوس إلى الحياة فلا بد من انتصارها :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

---

(١) الديوان ص ١٦٧ .

ومما جاء فى هذه القصيدة الفريدة قوله :

ودمدمت الريح بين الفجاج   وفوق الجبال وتحت الشجر
إذا ماطمحت إلى غاية   ركبت المنى ونسيت الحذر
ولم أتجنب وعور الشعاب   ولا كبة اللهب المستعر
ومن لايحب صعود الجبال   يعش أبد الدهر بين الحفر
فعجت بقلبي دماء الشباب   وضجت بصدرى رياح أخر

ثم يقول : وقالت لى الأرض ـ لما سألت : « أيا أم هل تكرهين البشر ؟
« أبارك فى الناس أهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لايماشى الزمان ويقنع بالعيش عيش الحجر

ثم يقول ، بعد نجاء مع بنات الطبيعة وأبنائها :

ورفرف روح غريب الجمال بأجنحة من ضياء القمر
ورن نشيد الحياة المقدس فى هيكل حالم قد سحر
وأعلن فى الكون أن الطموح ربيب الحياة وروح الظفر »

وعلى هذا الطراز البديع سارت هذه القصيدة ، وهى وثيقة شعرية جديدة تامة على كيفية تحوله الجديد ، وتفتح قلبه للحياة ، ونظرته المشرقة إلى الوجود .

وهذا القصيد يربى على الستين بيتا ، وفيه تتمثل عملية الإخلاء والامتلاء ؛ إخلاء النفس من رواسبها ، والامتلاء بالثقة والأمل بما تكشف عنه مشاهد الطبيعة ، وتبعاً لهذا نرانا على حق إذا قلنا : إنه

بهذه العملية السيكولوجية أمكنه أن يعود إلى إشعاعه ، وأن يشع على الآخرين . وأن يعانق الكون بأسره ، فلم يقتصر على إسعاد نفسه بل توسعت شخصيته وكبرت ، فنادى باسعاد بنى وطنه ومجاهدة الظلم والطغاة .

— ١٠ —

وحالما تفتحت نفسه ، وتوازنت ، وافته الأخيلة الأصيلة والآراء المبتكرة ، وعرف معنى السعادة ، ومارسها ، عرف السعادة الروحية فى الاختلاف إلى الغاب والسعادة الايجابية فى إنهاض شعبه ، ومحاولة تغييره وتبديله ، كما فعل بنفسه ، وقد أشار إلى هـــذه الحقيقة فى قصيدته « السعادة (١) » التى جمع فيها بين الفكر الأصيل والعاطفة ، فرأى أن السعادة فى التواؤم مع الحياة الفرار منها ، وفى العمل بلا ملل ، وفى الرجولة الباسمة وهذه هى السعادة الإيجابية الحقة ، كما رأى أن هنـــاك سعادة روحية شعرية هى الفرار من صخب الناس فى عزلة الغاب الحبيب ؛

وهذا التفكير الجديد هو ثمرة من ثمرات توازنه النفسى ، ونضج شخصيته ، وثمرة من ثمرات تجاربه فى الطفولة والشباب ، وفى هذه القصيدة المهمة يقول :

خذ الحياة كما جاءتك مبتسما   فى كفها الغار أو فى كفها العدم

(١) الديوان ١٥١ .

وارقص على الورد والأشواك متئداً
غنّت لك الطير أو غنت لك الرخم

واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضض والجم شعورك فيها إنها صنم
فمن تألم لم ترحم مضاضته ومن تجلد لم تهزأ به القمم

هذى سعادة دنيانا ، فكن رجلا
إن شئتها - أبد الآباد - يبتسم

وإن أردت قضاء العيش فى دعة شعرية لا يغشّى صفوها ندم
فاترك إلى الناس دنياهم وضجتهم وما بنوا لنظام العيش أو رسموا
واجعل حياتك دوحا مزهراً نضراً فى عزلة الغاب ينمو ثم ينعدم
واجعل لياليك أحلاماً مغردة إن الحياة وما تدوى به حلم

* * *

ولقد مارس الشابى هذين النوعين من السعادة ، ففى هذه الفترة اختلف إلى الطبيعة والغاب ، كما غامر فى لب الحياة ، وعلى شفتيه ابتسامة ، وفى قلبه مرح ورضا وانجذاب إلى الناس .

وقصيدته « من أغانى الرعاة(١) » شاهدة على هذه السعادة الروحية بين مشاهد الطبيعة. وقد استهلها بقوله :

أقبل الصبح يغنى للحياة الناعسه
والربى تحلم فى ظل الغصون المائسه

---

(١) الديوان ص ١٥٢ .

والصبا ترقص أوراق الزهور اليابسة
وتهادى النور فى تلك الفجاج الدامسه

* * *

فأفيقى يا خرافى وهلمى يا شياه
واتبعينى يا شياهى بين أسراب الطيور
واملأى الوادى ثغاء ومراحاً وحبور
واقطفى من كلأ الأرض ومرعاها الجديد
واسمعى شبابتى تشدو بمعسول النشيد
نغم يصعد من قلبى كأنفاس الورود

* * *

وتبدو سعادته فى ذروتها فى قصيدته « قلب الشاعر(١) » التى احتضن فيها كل كائنات الوجود، واتسمت بالفرحة، ووحدة الوجود، وفى تلقائية سيالة يقول :

كل ما هبّ وما دبّ وما نام أو حام على هذا الوجود
من طيور وزهور وشذى وينابيع وأغصان تميد
وبحار وكهوف وذرى وبراكين ووديان وبيد
وضياء وظلال ودجى وفصول وغيوم ورعود
وثلوج وضباب عابر وأعاصير وأمطار تجود

(١) الديوان ص ١٨٣ .

وتعاليم ودين ورؤى وأحاسيس وصمت ونشيد
كلها تحيي بقلبي حرة غضة السحر كأطفال الخلود

* * *

— ١١ —

ولم تتجمد نظرة الشاعر عند التعبير عن خواطره الذاتية ، أو عواطفه الفردية المنوعة ، ولكن شخصيته توسعت وكبرت - كما قلنا - فتناول الحديث عن وطنه ، والعمل على إنهاضه ، والدعوة إلى إصلاحه ، ومكافحة ما حاق ببلاده من ظلم المستعمر الفرنسي ، ولكنه في الحديث عن وطنه كان متراوحا بين الشدة عليه والثورة على ركوده ، بل القنوط من يقظته ، وبين الإعجاب به والحماسة له ، والشعور بإمكانيات يقظته ، وهو في الحالين بين اليأس والأمل في تقدمه ، يبغي خيره ، ويضم جوانحه على حبه وإعزازه .

ومن أشهر قصائده التقريعية ، قصيدته « النبي المجهول (١) » التي تتمثل فيها سخطه على ركود شعبه ، فندد أيما تنديد بهذا الركود ، وهي القصيدة التي استهلها بقوله :

أيها الشعب ليتني كنت حطاباً فأهوي على الجذوع بفأسي
ليتني كنت كالسيول إذا سالت تهد القبور : رمساً برمس
ليت لي قوة العواصف ياشعبي فألقي إليك ثورة نفسي

---

(١) الديوان ص ١٠٢ .

ثم يقول :

أنت روح غبية تكره النور وتقضى الدهور فى ليل مُلسٍ
أنت لا تدرك الحقائق إن طافت حواليك دون مس وجس

ثم يعلن برمه بجمود شعبه ، بل موته مصرحاً بالفرار من بيئته إلى الغاب فيقول :

إننى ذاهب إلى الغاب ياشعبى لأقضى الحياة وحدى بيأس
إننى ذاهب إلى الغاب علّى فى صميم الغابات أدفن بؤسى

* * *

وهذا القصيد إن دل على أن الشاعر لم يقدر ظروف وطنه الذى عاثت الرجعية فيه فساداً ، فانه يدل أيضاعلى أن الشاعر لم تقف ثورته على نفسه ؛ بل امتد أفقه إلى وطنه وأعلن ثورته عليه ، ويخيل إلىّ أن هذا القصيد ومثيله قيل إبان متاعبه العصابية .

ثم أخذت هـذه الحملة تخف رويداً رويداً حسب تغير حالاته النفسية ، ففى قصيدته « إلى الشعب (١) » نراه يمتدح الشعب ، وينبه إلى مفاخره ومواهبه ، ثم يعود إلى زجره ، ويأخـذ بعد ذلك فى توجيهه ، كأنما يحادث طفلا شقياً ، ويبدأ هذه القصيدة بقوله :

أين ياشعب قلبك الخافق الحساس أين الطموح والأحلام
أين ياشعب روحك الشاعر الفنان أين الخيال والإلهـام
إن يم الحياة يدوى حواليك فأين المغامر المقـدام

(١) الديوان ص ١٧٥ .

أين عزم الحياة ، لا شىء إلا الموت والصمت والأسى والظلام

* * *

ثم يأخذ فى توبيخه وزجره فيقول فى الفقرة التالية :

قدمشت حولك الفصول وغنتك فلم تبتهج ولم تترنم
ودوت فوقك العواصف والأنواء حتى أوشكت أن تتحطم
وأطافت بك الوحوش وناشتك فلم تضطرب ولم تتألم
يا إلهى أما تحس أما تشدو أما تشتكى أما تتكلم ؟ !

* * *

وبعد هذا نجده يوجهه ، ويحاول قيادته ، ولكنه يقف منه موقف المعلم الصارم فيقول :

كل شىء يعاطف العالم الحى ويذكى حياته ويفيده
والذى لا يجاوب الكون بالإحساس
عبء على الوجود وجوده
كل شىء يساير الزمن الماشى بعزم حتى التراب ودوده
كل شىء - إلاك حى عطوف يؤنس الكون شوقه ونشيده
فلماذا تعيش فى الكون ياصاح ! وما فيك من جنى يستفيده

ويستمر فى توبيخه على هذا المنوال فيسميه مرة بالشيخ العجوز ، ومرة ثانية بكاهن الظلام ، وينعته ثالثة بالروح الشقى الكافر بالحياة والنور . . وينهى القصيد بأنه شىء تافه جدير به العدم ! وهكذا كان الشابى يعكس انفعالاته الثائرة على شعبه المسكين ، كالأب الشاذ الذى

يقسو على ولده المزيل قسوة عارمة عصـــابية ، لشدة حبه له ، فإذا ما راقت حاله عاد إلى صفائه ، واعتذر بحبه العميق له ، ونجد آية هذا فى قصيدته « تونس الجميلة »(١) التى يقول فيها :

أنا ياتونس الجميـلة فى لج الهوى قد سبحت أى سباحه
شرعتى حبك العميق وإنى قـد تذوقت مره وقراحه
لا أبالى ، وإن أريقت دمائى فدماء العشـاق دوماً مباحه
وبطول المدى تريك الليالى صادق الحب والولا وسجاحه
إن ذا عصر ظلمة غير أنى من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد شعبي ولـكن ستـرد الحيـاة يوماً وشاحه

* * *

ويغلب على الظن أن هذا القصيد قد قيل فى السنين الأخيرة قبل وفاته ، فالتعقل والاتزان يسودها ، وثورة العاطفة تكاد تنجاب عنها ومثل هذا القصيد الوطنى الهادىء المتعقل قليل فى الديوان ، وربمـا التمسنا هذا الاتزان والتفاؤل فى كتاباته النثرية ؛ وإنه ليقول فى إحدى مقالاته بمجلة العالم الأدبى :

« إن فى أعماق هـــذا الشعب التونسى ثروة روحية وفنا قويا ، ولـكنها ثروة مهملة ، وفن غير مصقول ، وإن فى طبيعة هاته البلاد سرا يلهم الصخر أسمى المعانى وأرفع الأفكار ، وإن الداء كل الداء

(١) الديوان صـ ١٣

فى الألسنة المعبرة لا فى روح الشعب ولا فى طبيعة البلاد » .

وهذا المفهوم المنير الجديد لروح الشعب وآثاره مع كمال الأسف لمع فى سنيه الأخيرة ، عند ما تعادلت شخصيته ، وتفتحت للحياة وللناس ، وتغلب المفكر على الفنان ، وكاد يقصيه عن برجه العاجى ، ويدنيه إلى دنيا الواقع والواقعية ، ولكن هذه الفترة لم تطل ، ففقدنا شاعراً رائداً من شعراء الابتداعية النوابغ ، أشجانا بقصائده الوجدانية الفريدة التى تعد مفخرة من مفاخر الأدب العربى ، وثروة قيمة من التراث الفنى المعاصر .

— ١٢ —

هذا تحليل عام لحياة الشاعر الخالد أبى القاسم الشابى فى طفولته المرحة ، وفى شبابه المتوزع بين اللوعة والفرحة ، والقنوط والأمل ، والعصابية والاتزان ، تحليل استمد خطوطه من قصائده وبخاصة قصيدته « الجنة الضائعة » التى قص فيها مرحه فى الطفولة ، ولعبه فى الطبيعة ، وقصيدته « إلى الله » التى أبانت عن حساسيته المرهفة وقلقه العصابى وتماوجه بين الشك واليقين ، وقصيدته « إرادة الحياة » التى كشفت عن تحول ذاتيته ، وتغيرها وتفتح قلبه للحياة ، وقصيدته « تونس الجميلة » التى تنم على تقديره لمواهب شعبه ، والطاقات الكامنة فيه . وهذه القصائد الأربع هى فى نظرى المفاتيح السرية لشخصيته فى الفترة القصيرة التى عاشها على هذه الأرض وهى لا تتجاوز الخمسة والعشرين عاما .

وفى هذه الفترة القصيرة أمتعنا بفن متميز : طاقة شعرية زاخرة ، وتدفق موسيقى منقطع النظير ، وأصالة بيانية مشرقة .

ولا نعرف شاعراً يناظره فى انتقاء ألفاظه ، وفى إدراك أصوات الحروف وتجانس مخارجها مثلما نجد لدى الشابى :

فإذا وقفنا عند البيتين الأولين من قصيدته الرائعة « صلوات فى هيكل الحب » :

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كالورد كابتسام الوليد

وجدنا ألفاظاً منتقاة ، متساوقة الجرس ، وحروف الألفاظ آتية من منطقة الفم ؛ ووجدنا الإيقاع المتكرر المتوازن فى الألف واللام يضفى على موسيقى القصيد ترنيما حلواً ، وهكذا نلمس هذه الميزة فى كثير من أبياته .

وكما يمتاز شعره بإحساس مرهف لصوت الألفاظ فإنه يمتاز أيضا بإدراك الحروف السيالة الجميلة ، مثل اللام ، والميم ، والنون ، والراء والفاء ، والسين ، والذال .

فاذا نظرنا إلى البيتين الأولين من قصيدته « الغاب » نجده يكرر حرف اللام والميم والراء ، ويأتى بالسين والذال فيقول :

بيت بنته لى الحياة من الشذى والظل والأضواء والأنغام

بيت من السحر الجميل مشيد   للحب والأحلام والإلهام

وقد استخدم هذه الحروف فى قوافيه فأكثر من استخدام قافية الميم والدال والنون واللام والسين والراء ، وشاهد ذلك قصيدته « الغاب » الميمية ، وتحت الغصون النونية ، وصلوات فى هيكل الحب الدالية ، وذكرى صباح ، اللامية ، ومن أغانى الرعاة ، التى تعددت فيها القوافى ، السين والهاء ، والراء ، والدال ، واللام . والجنة الضائعة الرائية ، وهى من أجمل قصائده ، فقد أسبق بقافيه الراء حرف الواو والياء المتحركين ، فأضفى على القصيد الهدوء والخدر اللذيذ .

على حين أنه عندما عبر عن القوة والثورة استعمل قافيه الراء المسبوقة بحرف ساكن ، فتلاءمت هذه القافية الخشنة مع فكرته الثائرة .

ومثال ذلك نجده فى البيتين الشهيرين الذائعين من قصيدته « إرادة الحياة ، وهما :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة   فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليـــل أن ينجلى   ولا بد للقيد أن ينكسر

فقافية الراء مسبوقة فى كل القصيد بحرف ساكن ، قافية خشنة موائمة لفكرته الثورية .

ويلاحظ أن فى البيتين السالفين تكرار للألف المهموزة : إذا ـ أراد ـ أن ـ وقد أحدث بها القوة والتأكيد ، ويعود إلى هذا التأكيد فى القصيد السالف فيقول :

إذا ما طمحتُ إلى غاية ركبت المنى ونسيت الحذر
ولم أتجنب وعور الشعاب ولا كبة اللهب المستعر

وتتجلى هذه القوة فى قصيدته « نشيد الجبار » التى جاء فيها قوله :

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة هازئاً بالحب والأمطار والأنواء

فقد اختار لها قافية الهمزة ، واستخدم الألف المهموزة للتقوية .

ولم يقتصر فى تنغيم موسيقاه على القوافى الخارجيـــة ، بل إنه استخدم أصداء الأصوات المتماثلة ، كما نشهد ذلك فى قصيدته « قلب الشاعر » التى استهلها بقوله :

كل ما هب وما دب وما نام أو حام على هذا الوجود

فألفاظ هب ودب ، ونام وحام من الأصوات المتماثلة المسماة فى الإنجليزية Assonance ، وتكرار ما فى البيت يزيده ترنيما .

وصفوة القول فان تعبير الشابى هو تعبير رومانتيكى عاطفى مصور صوره ليست بعيدة التحليق ، بل هى صور متصلة بالواقع ، وهى صور منوعة ، سمعية وبصرية ، وحركية ، وشمية ولمسية ، وذهنية ، وتمتاز الأخيرة بالأصالة والتجديد ، ويكفى أن نتملى هذه اللوحة الصغيرة من لوحاته التى رسمها فى قصيدته « ذكرى صباح » التى يخاطب الغاب فيها بقوله :

يا عروس الجبال ، يا وردة الآ مال يا فتنة الوجود الجليل

ليتنى كنت زهرة تتثنى بين طيات شعرك المصقول
أو فراشاً أحوم حولك مسحو راً غريقاً فى نشوتى وذهولى
أو غصوناً أحنو عليك بأوراق حنو المدله المتبول
أو نسيماً أضم صدرك فى رفق إلى صدرى الخفوق النحيل
آه ! كم يسعد الجمال ويشقى من قلوب شعرية وعقول !

وقد جمعت صوراً بصرية ، وحركية وذهنية وسمعية متشابكة .
ومن هذه الصور الحركية البصرية تثنى الزهرة بين طيات الشعر ، ومن الصور الحركية الذهنية تحويم الفراش ، وهو غريق فى نشوة ، ومن الصور الجامعة بين الحركية والبصرية والسمعية ، ضم الصدر فى رفق إلى صدر خفوق .

ولا يتسع المجال لتحليل عناصر فنه الشعرى وأسلوبه ، وكل ما يمكن قوله : إن للشابى فنه المتميز على سائر معاصريه من شعراء الابتداعية وله أسلوبه الأنيق الناعم ، أناقة طبيعية لا وشى فيها ولا صنعة ، وله انفعالاته الصادقة الرقراقة النابعة من قلبه الصافى النقى .

— ١٣ —

وحقا أن الشابى لم يقلد أحداً ولم يتوكأ على شاعر مصرى أو مهجرى ، ولكنه تأثر بالمصريين والمهجريين تأثراً توجيهيا ، وأعتقد أن تأثره بمدرسة أبولو كان قوياً ، ونحن نلمس هذا التأثر فى بعض الصيغ والخواطر التى تواردت فى شعر رواد هذه المدرسة .

فقصيدته « مناجاة عصفور » (١) نلمح فيه أصداء أبي شادي ، والهمشري ، ومطران ، في قصائد « الجيزة » لأبي شادي ، « والنارنجة الذابلة » للهمشري ، « والمساء » لمطران ، وهي التي استهلها بقوله :

يا أيها الشادي المغرد ها هنا   ثملا بغبطة قلبه المسرور
متنقلا بين الخمائل تاليـاً   وحي الربيع الساحر المسحور

ومما جاء فيها قوله ، وهي بعض عبارات مطران :

متوحداً بعواطفي ومشاعري   وخواطري وكآبتي وسروري

وقصيدته « الأشواق التائهة »(٢) التي استهلها بقوله :

يا صميم الحياة إني وحيـد   مدلج تائه فأين شروقك
يا صميم الحياة إني فؤاد   ضائع ظامىء ، فأين رحيقك

هي صدًى من أنغام الصيرفي في ديوانه « الألحان الضائعة » .

وقصيدته « صلوات في هيكل الحب » هي من توجيهات أبي شادي في عبادة الجمال الأنثوي ، وقد قيل إنها من أصداء قصيدته « عرس المأتم » التي استهلها أبو شادي بقوله :

عذبة أنت في الخفاء وفي الجهر   وفي الهجر يا أغاني الظلام

ولكن القصيدتين تختلفان كل الاختلاف ، ولا تشتركان إلا في لفظتي « عذبة أنت » ، كما تعطرت بعض قصائده بأنغام المهجريين ، ومن

---

(١) الديوان ص ٥٥ .
(٢) الديوان ص ١١٢ .

ذلك قصيدته « شكوى اليتيم »(١) التي استهلها بقوله :

على ساحل البحر أني يضج   صراخ الصباح ونوح المساء

تنهدت من مهجة أترعت   بدمع الشقاء وشوك الأسى

فضاع التنهـــد في الضجة

بما في ثناياه من لوعة

والتي يختتمها بقوله :

ولما نديتُ ولم ينفـــع

وناديت أمي فلم تسمـع

ورددت نوحي عـلى مسمعي

وعانقت في وحـدتي لوعتي

وقلت لنفسي ألا فاسكتي

فاستهلاله من أنغام ندره حداد ، وختامها من وحي الشرنوني على ما أذكر في قصيدة له مماثلة .

ولا يتسع المجال لتعقب مثل هذه التأثرات ، وهي لا تعـاب على الشاعر ، لأن كبار الشعراء تأثروا بأعلام سبقوهم ، والعبرة باستقلال الشاعر وتفرده ، في إبداعه ، وقد بلغ الشابي في إبداعه مكانة رفيعة ، بل سما على من قيل إنه تأثر بهم سمواً كبيراً ، فقد قيل إنه تأثر جبران في قصيدته « السعادة » واتجاه الشابي فيهـا يختلف كل الاختلاف عن

---

(١) الديوان ص ٢٩ .

اتجاه جبران وتناول الشابي لها أرفع من تناول جبران ، وقيل إنه تأثر طلاسم أبي ماضي في قصيدته « في ظل وادي الموت » ، وهذا على ما أظن غير صحيح ، لأن خواطر طلاسم أبي ماضي خواطر عامة ، وتناوله يغلب عليه التفكير على حين أن خواطر الشابي في قصيدته خواطر ذاتية وتناوله لها أرفع من تناول أبي ماضي ، وإذا أضفنا إلى هذا ما قيل من أن أبا ماضي تأثر من الشاعرين الأمريكيين : ألان بو ، وروبرت جرين انجرسول ، فإن شبهة تأثر الشابي تضحى غير قائمة لعمومية الخواطر .

— ١٤ —

وبعد ؛ فهذه محاولة جريئة في ترجمة الشابي من شعره ، وتعرف حالاته النفسية في أطوار ثلاثة ، طور نعم فيه بالراحة والاطمئنان في الطفولة ، وطور استبدت به الكوارث فنأت به عن الاتزان ، وعصفت بشخصيته ، وطور تفتح فيه للحياة ، وعرف مواهب شعبه الكامنة وثراءه الفني ، ولكن هذا الطور لم يطل ، إذ اخترمته المنية في طور نضج وتفاؤل ، وإذا كانت روحه اللطيفة النورانية سربت في الضباب ، فإن شعره المبدع باق على الدهر آية على إبداعه الفني وعبقريته الشعرية النادرة .



شخصية التيجانى بشير وشعره

١٩١٢ — ١٩٣٧

التيجاني بشير وشعره

— ١ —

لم يترك التيجانى يوسف بشير ، معلماً للتعرف على شخصيته إلا ديوانه « إشراقة » وصورة فوتوغرافية يتيمة تتوج هذا الديوان .

ونظرة فاحصة لهـذه الصورة ، ورجعة متبصرة إلى شعر هـذا الديوان ، تؤكد لنا أننا نواجه شابا ، جمع إلى قوة الشخصية نباغة شعرية ، عقل مفـكر ، وشعور دافق صاف ، وإرادة قوية وفنان نابغ شق طريقه السابلة وسط ركام من الجمود والتعصب والجفاف والاستبداد بغزارة حيويته ، وبفيض حماسته ، وعاش كالزهرة الناضرة فى الصخرة العابسة .

عينان مشبقتان بعمق فى وجه مستطيل ينادى ابتعـادهما بالذكاء والنبوغ ، يعلوهما حاجبان مستقيمان كثا الشعر ، ينمان على الرجولة والاستقامة الخلقية ، ووجنتان عاليتان تنطقان بالاقدام والجرأة ، يحيطان بأنف طويل أبى حذر ، يدانيه فم حى حازم يتصل به ذقن عريض يكمن فيه العزم والاصرار ، والإراده القوية .

ومن التعبير العـام لهذا الوجه يتجمع إلى الذكاء والنبوغ ، العزم والتصميم والجرأة فى أكثر من ملمح .

ومن شعره المتنوع نجد أثراً قويا من فكره وقلبه ، وظلا رقيقاً من ظلال روحه المعجز ، وقبساً من حياته القصيرة الجميلة .

كما نجد ذلك منعكسا دائما فى آثار الموهوبين الصادقين المخلصين ، من أمثال ابن الرومى والمتنبى وأبى العلاء وغيرهم ، ومن شعراء الغرب أمثال وردزورث وبروننج ولامارتين ودى موسيه وأشباههم .

ذلك لأن الشاعر إذا كان صادقا أصيلا لا بد - كما يقول كيلو كوتس - أن يضع أثراً من نفسه فى عمله ، وأن يكون شعره مرآة لشخصيته .

ولهذا سموا الشاعر الإنجليزى العظيم شكسبير بالمرآة .

والملحوظ فى شعر التيجانى أن شعره مستقل ، بعيد كل البعد عن شعر أهل الصنعة ، المغرمين بالصياغة البراقه ،وهو وإن تزود بقراءة الشعراء القدامى ، وشعراء مصر من المحدثين من أمثال شوقى ، أو الصيرفى ، أو على طه ، أو محمود حسن اسماعيل ، أو شعراء المهجر من أمثال رشيد أيوب ، فقد استقل بفنه ، وعاش فى شعره ، وأبدع فى التعبير عن نفسه وعن آرائه وحياته ، تعبيراً رفافاً قوياً ، والتعبير عن النفس فى استقلال هو الدعامة الأولى للشخصية القوية .

فعند مانقرأ كبار الكتاب والشعراء من أمثال المعرى أو الجاحظ أو المتنبى أو ابن المقفع أو عبد الحميد الكاتب ، نجد فى أدبهم وشعرهم طريقة سامية للتعبير الأدبى تكشف عن خصائصهم المنفردة ، ونجد لأساليبهم مميزاتها المتنوعة المختلفة دقة أو قوة ، رقة أو دسامة وتركيزاً .

— ٢ —

وتعبير التيجانى الأدبى يمدنا بأكثر من خصيصة من خصائص شخصيته ، فهو تعبير حى رفاف ، فيه طلاقة واقتصاد فى العبارة وهذا يحمل الدلالة الصادقة على حيويته ، وحريته ، واعتداده بكرامته ، فحيوية التعبير هى ظل للحيوية الفائضة لديه ، هى الكهرباء الدفاقة التى يمتاز بها الشاعر على العاديين من الناس . وطلاقته البيانية هى أثر من آثار تحرره وجرأته ، أما عبارته المقتصدة الخالية من المبالغة أو المغالاة .. عبارته التى تأنف من النزوع إلى التشبيهات والمجازات . . عبارته المنتقاة هذه ، هى الشهادة الأكيدة على بساطته العميقة ، واعتداده بكرامته ، بل على مقدرته العقلية وقوة تركيزه .

هذه هى المفاتيح الأساسية لهذه الشخصية ، وهى مستمدة من تعبيره الأدبى الرصين .

وهناك سمات أخرى نجدها كامنة وراء هذا التعبير ، هى أصالته وميله إلى الابتكار ، ونفاسة معدنه النفسى ، وخلو هذه النفس من أى جوهر وضيع ، وهذا يبدو جليا من وحدة تجربته الشعرية ، واستواء أبياته فى القصيد الواحد ، وانسجام موسيقاه ؛ فالوحدة الشعورية لديه لا تتخلخل فى الغالب ، وأبيات القصيد تسير فى مستوى واحد ، فلا يرتفع بيت ويتخاذل قرينه القريب أو البعيد ، ويقول السيكولوجيون : إن هذه السوية أمارة استواء الخلق ، والتجرد من الانحرافات والعقد النفسية ، وكوارث العصابية .

والتيجانى صادق . . صادق عند ما يفسر نفسه الشفيفة بقوله

فى قصيدته « نفس » ص ٤١ من ديوانه « إشراقة » :

هى نفسى من الندى قطرات لم تنلها يد الزمان بخلط

وتتأكد هذه السوية من مطالعة شعره الغزلى أو الوجدانى أو الوصفى ، فنراه فى هذه الأنواع لايشط انفعاله ، ولا يشطح شعوره ، ولا يحوم تهويمات بعيدة كما يفعل شعراء الرومانتيك المنحرفون أمثال الشاعر الإنجليزى شيلى أو بليك أو الشاعر الفرنسى بودلير ، ممن كابدوا العقد النفسية والانحرافات والأنية .

من هذه الأنواع من الشعر كان التيجانى يوازن بين شعوره الباطن وعقله الواعى ، فلم يكن يجرى لاهثاً وراء العاطفة ، بل كان عقله يقوده إلى واقع الدنيا .

ونأمل على سبيل المثال ، قصيدته الوجدانية « لوعة الغريب » فإنك لتراه فى غربته لا يبكى ، ولا تهوله الغربة ، ولكنه فى غربته يذكر قيثارته ، ويذكر أخته وهى تعزف عليها ، ويصف جمال ماحوله إذ يقول :

يا غريباً عن ربعه قم تلمس بين قيثارة الهوى آثاره

وتعقب معاهد المرح الطيب واقطف من الهوى أزهاره

ههنا حيث يشرق الأمل الغض وتمشى على الزمان النضاره

ههنا الحب والهوى وهنا الأحلام سكرى ، والروضة المطاره

الجمال الحبيب ، والساحر المحبوب ، والزهر ، والشذى ، والنضاره

أبيات القصيد قوية اللبنات ، متساوية القوة ، وانفعالات القصيد

منوعة : فما تكاد انفعالات الحزن تلون بعض الأبيات حتى تشرق عليها انفعالات الفرح والأمل ، وموسيقى القصيد متوسطة النغم ، وبحرها وهو الخفيف متوسط فى عدد مقاطعه ، وهو البحر الذى أحبه واستخدمه فى أكثر قصائده ، وهو الذى أغرم به طائفة من الشعراء المصريين المتزنين فى انفعالاتهم ، وعلى رأسهم رامى ، فأغلب شعره من البحر الخفيف كما جاء فى كتاب موسيقى الشعر (ص ٢٠٢)(١) .

وإذا رجعنا إلى شعره الغزلى نجد هذه الظاهرات بازرة فيه ومن آيات ذلك قصيدته « نعيم الحب » ص ٨٩ التى يقول فى فقرتها الثانية :

إن لى من وراء عينيك هاتين مصلى ، وفيهما لى مخدع
فيهما لوعة القلوب ونعما ها ، وكم فيهما حديث موقع
نفس هائم يصعده الحب نديا ، كأنما هو مدمع
مر بى عابراً ، فأوردته نفسا أصابت من سحر عينيك مشرع
فيه من لوعتى أحاديث يغلى فى حواشيها فؤاد مفزع

فهو فى هذا القصيد وغيره من القصائد الغزلية يسير فى أبياته على استواء ، لا يندفع وراء العاطفة كما يفعل الرومانتيكيون الهائمون ، ولكنه يكبح العاطفة بالفكر ، ويستخدم البحر الخفيف فى تعبيره الموسيقى كما أسلفنا ، وعلى هذا الغرار سار فى شعره الوصفى ، وشاهد ذلك فى قصيدته « توتى فى الصباح » ص ٣٥ ، وهى قصيدة يكمن

---

(١) كتاب موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس

فيها شعوره ، ويمسحها بالحقيقة فكره يصف فيها هذه الجزيرة وصفا واقعيا ، لا يترك فيها طيراً أو حيوانا أو شجرة أو نبتاً ، وقع عليه بصره ، أو حدثاً حدث بها أو زارعا فلح فيها إلا وصفه وصفاً خفيفا خاطفاً ، استمع إليه وهو يصف الجرار والفتيات يملأنها من بئر فى الجزيرة . . يقول :

إن الجرار وقد ضا ق بالقليب الممر
تكسرت وهى تهوى فما تلاءم كسر
فتلك معصوبة الرأ س ، كم تنى وتخر
وتلك مرضى وهاتيك للخواطر قبر

فهذا القصيد قد اشترك فيه الفكر والشعور والخيال ، وقد اختار له بحراً قصيراً هو « المجتث » ، وهو يكشف عن طربه وفرحه فى اللحظات التى أبدع فيها القصيد . ولم يخالف التيجانى طبيعته المعاودة إلا فى بعض قصائده الصوفية ، حيث نجد شعوره طاغياً على فكره ، وحيث نجد هذا الشعر ينبع من عقله الباطن فى تلقائية ظاهرة وشاهد ذلك قصيدته « الصوفى المعذب » ص ٧ ، التى يقول فى فقرتها الثالثة :

الوجود الحق ما أوسع فى النفس مداه
والسكون المحض ما أوثق بالروح عراه
كل ما فى الكون يمشى فى حناياه الإله
هذه النملة فى رقتها رجع صداه

هو يحيا في حواشيها ونحيا في ثراه

فمثل هذا القصيد إن كان يتوج شعره كفنان فانه يكشف عن حالة نفسه فى فترة من فترات حياته خرج فيها عن طبيعته المتوازنة ، وافرغ من عقله الباطن حمولته الثقيلة من الآلام المضنية ، والهموم الكابية ، والتوترات النفسية البالغة ، وهى تدل على حالات عارضة له ، كادت تهدم كيانه وشخصيته ، ولولا الإعراب عنها لتأثرت شخصيته تأثراً فادحاً .

— ٣ —

وإلى جانب هذه المفاتيح الكبيرة التى تكشف عن بعض أسرار شخصيته فهناك مفاتيح سرية صغيرة تكشف لنا أسراراً أخرى ليست أقل أهمية عما ذكرنا ، هى كلماته الغريبة الصعبة ، التى كان يستعملها ، وبعض ألفاظه التى طاب له ترديدها ، ووفرة قاموسه اللفظى وتنوعه فلا تكاد تقرأ قصيداً له ، حتى تواجهك لفظة غريبة . ففى قصيدة « قطرات » تقع على كلمة : رهام ، ومعناها المطر الخفيف المستمر ، وفى قصيدة « الزاهد » يفجؤك بكلمتى دجوجى أى مظلم ، ومقفقف أى مرتعد من البرد ، وفى قصيدة « ودعت أمس يقينى » تبهرك كلمتى يوح ، أى الشمس وموداة أى صحراء ، وفى قصيدة « يؤلمنى شكى » تعثر على كلمتى : صيخود وهى الصخرة الشديدة الحر ، وصيهود أى الفلاة التى لاماء فيها ، وفى قصيدة « تونى فى الصباح » يلقاك هذا البيت الملتف على نفسه :

ورب قنواء للعصم والأنوق مقر

ويقصد به وصف نخلة تلوذ إليها العصافير ، وتقر بها العقاب ؛ وفى قصيدة « على قبر حبيب » كلمة اشوى أى أصاب الأطراف برمحه وفى قصيدة « دمعة على طفل » كلمة خفيفة النطق ولكنها قليلة الاستعمال هى كلمة مَرَى (م ر ى) أى استخرج :

ومريت من عيني آخر دمعة حمراء . . .

وفى قصيدة « الصوفى المعذب » كلمة ربذ ، ومشى الدهر ربذ الخطو ، أى خفيف الخطو وفى قصيدته « فجر فى صحراء » يصدمنا بكلمة الكنهوَر وهى قطع من السحاب المتراكم ، وفى قصيدة « الخلوة » يأتينا بكلمتى ارجحنّ وهينم ، ويقصد بالأولى اهتز ، وبالثانية اخرج صوتاً خفياً .

وهو فى استعمال أمثال هذه الألفاظ وأشباهها يحدث لدى القارىء دهشة جمالية ، ويكشف فى الوقت ذاته عن خصيصة من خصائص الأناسى غير العاديين وهى الغرابة ، ومن أقوال « روسو » وهو يتحدث عن نفسه : كل ما أعرفه عن نفسى أنى مختلف عن الناس .

أما ألفاظه الكثيرة الدوران فى شعره ، والتى ملأت ديوانه فهى كثيرة ، وقد وردت على غير وعى منه ، ولها دلالاتها النفسية ، وليس من المستطاع ذكرها جميعاً ، ولكننا نكتفى بهذه الألفاظ : فالفعل يزحم — وقد استعمله أكثر من ست مرات — ينم عن الطموح ، وكلمة مرحى — وقد استعملها أكثر من أربع مرات — تكشف عن حسن لقائه للناس ، وأنسه بهم . ولفظة همس ومشتقاتها ، وهينمة

ومشتقاتها ، وجرس وهى دالة على قواه السمعية المرهفة ، وعلى أنه كان أذناً ، كما يقولون .

وهذا بحث طريف يمكن أن نخرج منه بطرائف نامة على سمات هذا الشاعر ، لأن الألفاظ المرددة المكرورة هى من نبع العقل الباطن وهو مصباح نفسى كشاف لأسرار النفوس ودواخلها .

والتيجانى فى استعمال هذه الألفاظ يبعث الكلمات من سباتها العميق ، وهو لا يستعملها لعرض نفسه ومظهريته ، وإنما يستعملها لأنها كلمات لا يؤدى المعنى إلا بها .

ولا يفوتنا التنبيه إلى أن محصول الكلمات المختلفة المتنوعة وفير ، وهذا معيار لدى السيكولوجيين على الذكاء والنبوغ ، وقد كان للشاعر الإنجليزى شكسبير قاموس خاص من الكلمات . بل كانت له كلمات مبتدعة ، وهذا ما كان يفعله التيجانى أحياناً كاستعماله كلمة ناجس مثلا بمعنى نجس ، ناجس عظمه ، وناجس فى اللغة تعنى مالا يبرأ منه .

ولا يقتصر شعر التيجانى وتعبيره الأدبى على هذا ، بل إن شعره وعى فترات حاسمة من حياته ، كما يتجلى ذلك من قصائده « الصوفى المعذب » ص ٧ ، و « ثورة » ص ١٥٢ ، و « الخلوة » ص ٥٨ ، و « فجر فى صحراء » ص ٨٥ ، وهى جواهر غالية مكنونة فى ديوانه ، وهى شعلة خلوده على مر الزمن .

ففى تضاعيف قصيدة « ثورة » أبيات لخص فيها مرحلة صباه

ونزوعه إلى الخلق الفنى ، وهيامه بالموسيقى والغناء ، إنهـــا وثيقة بالغة الأهمية ، نامة على حياته وهوايته ، سجل فيها غرامه بصنع التماثيل والعرائس من الطين ، سجل فيها محبته للغناء ، وكيف كان يصنع من القاب مزماره ، سجل فيها كيف كان يعيش مع نفسه ، ومع أحلامه ومحبته لصحبه الصغار ، وإنه ليقول فى إبداع :

يفرح الطين فى يدى فألهو جاهداً أهدم الحياة وأبنى
كم أشيد الحصا قصوراً وكم أكبر من شأنها وأقدر شأنى
وطنى فى الصبا الدمى والتماثيل ، ونفسى ، ومن أحب ، وخدنى

ثلاثة أبيات معبرة عن ميوله الفنية فى لعبه ، ومؤكدة نزوعه للخلق الفنى . أما توقه للغناء ، وإصراره على عملية الخلق وفرحته بهذا الخلق ، فهى ماثلة فى أبيات تالية فى القصيد ذاته سجلها الشاعر عند ما ألفى أباه ينهاه عن هذه الألاعيب الشيطانية ، وهو يقص هذه الواقعة من ذاكرته الخصبة :

قل لهذا الصبى ماذا بكفيك إذا لم تكن ألاعيب جن ؟
هذه يا أبى تصاوير ما تبرح دنياى أو تزايل كونى
يصنع الغاب مزهرى ، ويشيد الرمل عرشى ، ويبعث اللهو أمنى
تلك عرسى ، وإنها صنع نفسى ، بيدى صغتها ، وذياك إبنى

أما قصيدته « الخلوة » فهى تقص مرحلة يفوعته عند ماترك تماثيله ودماه ومزماره والتحق بالكتاب ، أو ما يسمى فى السودان بالخلوة ، وهذه القصيدة هى خلاصة حياته فى الكتاب وتأثراته بهذه البيئة

الجديدة ، وتفسير لانفعالاته المتوهجة فى هذه الفترة ، وهو يروى فيها فرحته الممزوجة بالألم ، فرحته بهذه الدنيا الجديدة ، فرحته بلداته الصغار الذين يحفظون معه القرآن وألمه من سلوك معلم الخلوة ، وغلظته وقسوته ، التى كرهته فى ارتياد الخلوة ، وهو يستهلها بقوله :

هب من نومه يدغدغ عينيه مشيحاً بوجهه فى الصباح
ساخطاً يلعن السماء وما فى الأرض من عالم ومن أشباح
حنقت نفسه ، وضاقت به الحيلة ، واهتاجه بغيض الرواح

ثم يختتمها بقوله :

صور للصبا الأغر موشاة بأحلامه وضوء الصباح
يدفق البشر من مفاتن دنياها ، وتفتر عن سنا وضاح

وأغلب الظن أن هذا القصيد دبج فى نضجه ، فقد جمع ذخيرة من الصور البصرية والحركية والنفسية ، ووشاها بموسيقى هادئة نبيلة ، دبجها فى لحظة مشرقة من لحظات جذله الروحى ، فى لحظة مضيئة من لحظات الإلهام .

وفيها تتجلى أكثر من سمة من سمات شخصيته ، فإن تزاحم الصور المتوعة فيها تدل على مقدرته الفكرية ، وقوة ذاكرته السمعية والبصرية هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان أسلوبها الحى ، وألفاظها الدقيقة ، وموسيقاها الطليقة تدل دلالة صريحة على تحرره وحيويته الدفاقة ، والحيوية - كما قلنا - أكبر ميزة للشخصية البارزة - كما تقول الكاتبة « جريفى » فى كتابها « الشخصية » وتتمثل هذه الحيوية فى

طائفة من قصائده . وتظهر أمارات هذه الحيوية فى ارتكازه على استعمال الأفعال بكثرة دون الصفات أو الظروف . ومن انتقاء الأفعال الدالة :

هب من نومه يدغدغ عينيه مشيحاً بوجهه فى الصباح
حنقت نفسه ، وضاقت به الحيلة ، واهتاجه بغيض الرواح
ورمى نظرة إلى شيخه الجبار مستبطناً خفى المناحى

ثم قوله فى آخر القصيد يصف غلمان الخلوة ، وقد دب الفتور فى أرواحهم ، وسجى الكرى فى عيونهم ، وصيحة المعلم الجبار تفزعهم بقوله :

ونفوس سجى الكرى فى حواشيها، ودب الفتور فى الأرواح
فارجحنت مهمومات ، وماتبرح مركوزة على الألواح
كلما لفها النعاس ، وأضفى فوقها عالماً ندى الجناح
قصف الرعد فى المكان ودوى مرزماً صاخباً قوى الصياح
فاستفاقت وهينمت بعض أشياء وعادت وعاد قصف الرياح

أفعال قوية رقيقة معبرة : سجى ، ودب ، وارجحن ، ولفها ، وقصف الرعد ، ودوى ، ثم استفاقت ، وهينمت ، وعادت ، وعاد قصف الرياح .

أما القصيدة الثالثة ، وهى قصيدة « الصوفى المعذب » فهى تنقلنا إلى جو جديد فى حياته ، الجو الذى بلغ فيه مرحلة البلوغ التى التحق فيها بالمعهد العلمى . وأحب أن أقف وقفة طويلة نوعا ما ، عند هذه

المرحلة من الناحية السيكولوجية ، لأنها مرحلة التغيير ، المرحلة التى ينتقل فيها المرء من الصبا إلى دنيا جديدة ، المرحلة التى يتحول فيها المرء من الرضا والتسليم إلى تعرف الحقائق والإكثار من التساؤل ، التساؤل عن علاقة المرء بأسرته ، وعلاقته بالمجتمع ، وعلاقته بالوجود ؛ ما هذا الوجود ؟ وما وراءه ؟ هذه هى المرحلة المخيفة فى عمر الإنسان ، تؤثر فى توجيهها الأسرة والبيئة ، والثقافة السائدة ، وهذا التحول فى التساؤل والمعرفة والشعور بالمسؤولية نحو الذات ، إنما هو تحول طبيعى كما يقول « إلرز » فى كتابه « سيكولوجية الخلق » .

وقد كان طبيعيا من هذا الشاعر عند بلوغه هذه المرحلة ، أن يقف متسائلا عن هذا الكون ، وعن الإله ، وعما وراء الطبيعة ، ولم يكتم ما دار فى خلده ولم يكتم ما سبح بنفسه ، كما يفعل الكثيرون من الكتاب ، ولكنه تجارا وأفصح ، وتجارا وسأل ، وأجرى حوارا بينه وبين نفسه ، حوارا سلم فيه آنا ، وآنا أنكر ، ولم يقصد منه إلا تعرف الحقيقة ، وانتهى فى هذه الفترة إلى عجزه عن معرفة أسرار الخالق ، وهو فى تأييده للخالق كان رائما ، وفى طوفان الشك به ، كان متألما ، نادما ، متحسرا ، وشواهد هذه الحيرة الممزوجة بالحسرة تجدها فى قصائده « الله » و « حيرة » و « يؤلمنى شكى » ، وفى هذه الأخيرة يقول :

أشك يؤلمنى شكى وأبحث عن   برد اليقين ، فيفنى فيه مجهودى
أشك لا عن رضا منى ويقتلنى شكى ، ويذبل من وسواسه عودى

وكم ألوذ بمن لاذ الأنام به   وأبتغى الظل فى تيهاء صيهود

فهو لا يشك لمجرد الشك ، بل يشك ليصل إلى الحقيقة . يشك متألما يكاد الشك يقتله ، وهذا الشك هو ما راود كثيراً من الأعلام فى الشرق والغرب ، وعلى رأسهم الغزالى وتولستوى ، وقد طوف جناح الشك ببعض المسلمين ، وذهبت جماعة منهم تسأل الرسول عن هذا الطائف المخيف ، فربت على أكتافهم ، وابتسم قائلا : « هذا هو صريح الإيمان » .

وإنما وقفنا هذه الوقفة الطويلة لنبرز حقيقتين كبيرتين ، الأولى أن التيجانى عبر فى فترة من فترات حياته عن حالة سيكولوجية طبيعية قد يكابد منها فريق من الناس ، ويخافت بها البعض ، وقد يخفيها البعض الآخر ، ولكن التيجانى تجاراً وأفصح ، وهو يضع يدنا على الحقيقة الأخرى من طبيعة شخصيته ، وهى تحرره وجرأته .

ويطيب لنا أن نذكر أن التيجانى فى الفترة السابقة من حياته التى أسلفنا كان يلمع الأمل فى صدره ، أمل الوصول إلى اليقين ، فى قصيدته « ودعت أمس يقينى » ص١٦ يقول . إن هداه التائه سوف يعود إليه يوما ، وأن يوح — أى الشمس — سوف ترود بابه يوما ما :

ويحى ، وويح الهدى المقبور ليس له
رجعى ، وقد أوغلت فى التباريح
لا أعرف اليوم إلا أنه لغد   باب تمر على مغلاقه يوح

وقد مرت يوح عليه بلا ريب ، ونفح الشعر العربى نفحات صوفية عطرة كشفت عن شفافية روح التيجانى وعن إيمانه بوحدة الوجود ، كما كشفت بجلاء عن شاعرية صافية مجنحة ، هى آية مبصرة على مغامراته الروحية ، وفى كل مغامرة روحية ـ كما يقوله يقس ـ ومضة من ومضات العبقرية .

ونلمح مثل هذه الومضات فى قصيدته « فجر فى صحراء » ص ٨٥ فهذه القصيدة قد غامرت الروح فى خلقهـــا ، أنه لا تصف الفجر والصحراء بقدر ما تصف روح التيجانى الطليقة السمحة المتصوفة ، وفى وهجها ضوء من وهج شخصيته ، وإنه ليقول فيها :

املأ الروح من سنى قدسى   مبهم كالرؤى وديع رضى
قمرى كأنما سكب البد   ر عليه من فيضه القمرى
واغمر القلب فى مفاض من الفجر

وضىء جم الندى عبقرى
يثب الحلم حول مشرعه الساجى ، ويجرى مع الضحى فى آنى
كم تظل الرؤى به شارعات   فى ينابيع من جلال ندى
يتلففن فى جوانح بيضاء   ويسحبن من رداء وضى
ساحبات على الكنهور أصبا   غا رقاقا من واضح وخفى

ويختتمها بقوله بعد التملى بجمال مرأى الصحراء :

صاح من روحه وكبر فى أعماق دنياه صارخا كالصبى

أو هذا الجمال يارب .. هذا السحر من أجل ذلك الآدمى ؟

هذه خواطر عنت لنا بعد التطلع إلى صورة هذا الشاعر الفريد واستيعاب شعره ، وهى شهيدة على توحد الشخصية بالنبوغ بله العبقرية فيه ، وهى خطوط عامة لصورة هذا الشاعر ، تتطلب منا الأضواء القوية والألوان الثابتة لإبرازها على حقيقتها .

وتقضى علينا الأمانة دراسة وراثته وبيئته وباقى صنائعه الأدبية وهو عمل غير ميسور فى الآونة الراهنة .



جليلة رضا

فى ديوانها « الأجنحة البيضاء »

جليلة رضا

— ١ —

لون واحد من ألوان شعر « جليلة رضا » يبهرنا ، هو اللون الغنائي الوجداني . فلا شعرها الوطني ولا الوصفي ، يرقى إلى مستوى شعرها الوجداني ، في صدقه وحرارته ، وأسلوبه الناعم الطليق .

وجليلة في الحق أجرأ شاعرة معاصرة عبرت عن حالاتها الوجدانية ، وعن أشواقها ، وبدواتها في حرية وانطلاق .

وديواناها « اللحن الباكي » ، « واللحن الثائر » شاهدان على هذه الحقيقة ، أما ديوانها « الأجنحة البيضاء » فهو برهان قاطع عليها .

وقصيدتاها البديعتان الرائقتان « وسأمضي » ، ورحلة عمري » وهما من درر الديوان ؛ تنم أولاهما عن روحها الهائمة هيمان الفراشة البيضاء المحبة للحرية ، والأضواء والسماء والماء ، والراقصة في زهو فوق الشجر والزهر ومختلف الأجواء .

وفي موسيقة متحركة آسرة تقول :

أتأمل ! لا ! لن أتأمل
سأكون الظمآى والمنهل
وأمد على دربي خطوي
وأراقص نفسي في زهو
وأدور أدور كدوامه
شماء القامة والهامه

وسأرقص للفجر الساري
الطل على بدني العاري
وأمر على الشط المغري
وأعانق أمـــواج البحر
وسأرقص فوق سواعده
وسأرقص فوق وسائده
والموجة من رقصي سكرى
تغمرها العربدة الكبرى
لن أخشى أهوال مكاني
فالبحر له شط ثان
وسأمضي . . . .

وحق لها أن تمضي متحررة طليقة ، فقد عاشت ولم تجد في طفولتها الحنان ، ولا في شبابها الإنسان الذي يفهمها ، وضاقت ذرعا بالبيئة المتحجرة التي لا تقـــدر عواطف المرأة ، وإنسانيتها ، وسموها على الرجل في انفعالاتها النبيلة : الحنان ، والمحبة ، والإيمان بالمثل العليا .

— ٢ —

وفي قصيدتها الثانية « رحلة عمري » ، وهي أطول قصيدة في الديوان إذ بلغت مائة بيت ، أضواء كاشفة عما لاقت هذه الإنسانة من آلام في الصبا واليفوعة مما جعلها تنطوي على نفسها ، وكاشفة عما يكنه قلبها من حنان وبر ومحبة ، وعما يطوف بقلبها من إحساس بما في الكون من

متعة وجمال ، وما للجمال من هيمنة وسلطان ، هذا الألم فى اليفوعة ، وهذا الإحساس بتزمت البيئة ، كادا يوديان بها ، ولم يخلصها إلا المودة العاطفة البريئة من أناس نوادر ، جعلتها ترتفع على آلامها ، وتنزل رذاذ العزاء والسلوى وأضواء الأمل على قلبها ، والتعرف على ما فى نفسها من طاقات كامنة مبدعة ؛ وإنما لتكشف الستار عن عهد اليفوعة تقول :

لا تلمنى ! عشت كالقطة فى أمسى ضريره
رهن حكم الأخ والزوج وأوضاعى أسيره
لم أذق من عطف أمى أو حنان الأب نهله
لم أكن أدرك إلا أننى روح نملة
سئم الناس دجاها ومآسيها المريره

وتعبر عما كابدت من أسى ، وما أحدثت لها من انزواء وانطواء وعزلة تقول :

وانطويت الأمس ، لاخل لنفسى غير نفسى
من صميم الذات استوحى ومن عقلى وحسى
كل ركن - من وباء الناس - فى جسمى محصن
وبأعماق كتابى أعرق الروح وأدفن
والدجى والصمت والأشباح خلانى ويأسى !

ويعاودها الأمل المشرق ، عندما يطل عليها وجه إنسان إنسانى ، له قلب كبير . وروح مرحة طهور ، فتتعدل نفسيتها وتتعرف طاقاتها



الشاعرة جاليلة رضا

الروحية . فتقول مخاطبة إياه :

ثم أسريت بليلى مشرق الوجه صبوحه
وتحنيت على قلبى وضمدت جروحه
لم أكن أدرك يوما أننى روح وفيه
أن فى عمق الدياجى بعض أضواء خفيه
أن فى هوة أعماقى آفاقا سليبه

وهذه الحقيقة هى حقيقة عميقة لا يعرفها إلا الذين أدركوا بقوة الكشف مافى جوهر الإنسان من كنوز نادرة .

وقد كشفت الشاعرة عن هذه الكنوز التى تميز بها الإنسان وبخاصة المرأة . قالت :

كان إحساسى بكراً لم يزل رغم الهوان
كان فى قلبى كنوز من حنين وحنان
ولمست الحب فى أندى معانيه الشفيفه
فتحديت تقاليدى وأوضاعى السخيفه
وتخطيت حدودى ومكانى وزمانى

فالحب البرىء هو الذى نقب عما فى قلب الشاعرة من كنوز . والحب هو الذى علمها التحرر ، والحب هو الذى قادها إلى ينابيع الفن الصافية .

— ٣ —

والأجنحة البيضاء هى بلا ريب أجنحة الحب ، هى التى ترفع الإنسان من الوهدة إلى القمـــة ، هى التى تضفى على القلب الوهج والإشعاع ، وعلى الذهن التعمق والنفاذ ، والإبداع .

والحب ألوان ، حب غريزى جنسى يعيش على المتعـة ويستمد حياته من الجاذب الجثمانى ، وحب عاطفى رومانتى يقوم على العاطفة ، وحب فـكرى يقوم على التجاوب الذهنى ، وحب كامل يجمـع بين أولئك جميعاً .

ويقول پول جاجو فى كتابه «سيكولوجية الحب» : إن الحب العاطفى يلحظ فى العاطفيـات المثقفات ، الموهوبات ذوات الذكاء والخيـال والسمو . ومصدر هذا الحب الحنان والعاطفة ومن جواذبه ، تعبير الوجه ، ونغمة الصوت ، والابتسامة ، والإشارة .

وديوان الأجنحة البيضاء ، يزخر بفيض من هذا اللون من الحب الذى يبدأ بالمودة ، ويتقوى بالأمل والخيال ، ويتغـذى من النظرة ، والحديث ، واللمسة . فنى قصيدة « حب وطب » نجد هذا اللون العاطفى الطهور الذى أبدعه اللطف ، والذكاء ، والروح الطيبة المرحة .

وتقص الشاعرة فيها زورة لهـا إلى طبيب يعالج والدها المريض ، فتأسرها مودته الدافئة ، وابتسامته الرقيقة ، ولمسة يده الحانيـة ، وتجاوبه الفكرى معها . تقول فى واقعية مرحة :

غداً سأزاك طبيبي الجميـــل ، سأمضي إليك قبيل الأصيل
غداً في « العيادة » سوف أداعب حلم انتظاري بصبر ملول
سأجلس بين الزبائن حتى يشير إلى « التمورجي » النحيل
فأمضي إلى غرفة « الـكشف » ذهلى أجرورائي غلامي العليل
غداً ستضم يدي في يديك وتضحك في نشوة ظافره
وتهتف حين تراني : أهلا لماذا تغيبت يا شاعره ؟
وتمضي تهدهد كف فتاي ، وتعتب في رقة ظاهره
« ألا تعلمين بأن الغياب مضر بحالته الحاضره » ؟
ستحنو عليه بصدر رحيب وتمضي تعالجه في حنـان
وتشغلك المهنة المستبدة عن رؤيتي ، عن وجود الزمان
ولـكن خلفك قلبي الوجيب سيرنو إليك كشط الأمان
وكالأمس ، كالغد ، سوف يذوب حنينا إليك برغم المـكان

أرأيتم إلى هذه القطعة الفريدة ، كيف كشفت عن حقائق الحب العاطفي الطهور ، وعن نشأته وجواذبه ، وثمرته . ثمرته الشهية التي يطعم منها الإنسان البهجة الروحية ، والسعادة والأمان .

— ٤ —

وهكذا إذا قلبنا قصائد هذا الديوان ، وقفنا على حقائق نفسية قيمة دبجتها الشاعرة بإلهامها النفاذ ، وإشعاع الحب الصادق المبدع .

فإذا انتقلنا إلى قصيدتها « خيال وحقيقة » (ص ٦٤ من الديوان) وقفنا على حقيقة سيكولوجية أخرى ، هي أن من جواذب الحب ،

الصوت .. وأن الجاذب البصرى أى العين أقوى من أى جاذب آخر .

فها هى ذى تروى قصة حب أو بمعنى على قصة مودة أثارها صوت إنسان فى المسرة ، فهامت بصاحبه ، واستحضرت فى خيالها طيفه ، فإذا ما ألح عليها الفضول أن ترى صاحب الصوت ، ووقع بصرها عليه أنكرته ، لثقل دمه . أو بمعنى آخر لانعدام التعاطف الروحى عند النظر . .

وقد صورت هذا الحب العاطفى الخيالى تصويراً بلغ درجة متناهية فى الملاحة إذ قالت :

رأيتك ! ياليتنى لم أرك لأنهل من حبى الجارف
ويا ليت قلبى اكتفى بالخيال وعاش على رنة الهاتف
سأبكيك حتى تغيض العيون وأحنو على جرحى النازف
فقد كان طيفك لى سلوتى ، وكان لى الأمن فى عاصفى

وكنت إذا ما لمست المسرة تنضح عطراً وتعبق عطرا
أخال صداها رنين الحياة يحطم بين ضلوعى قبرا
أضمك فى طيفها تارة ، وأحنو عليها ، وألثم ثغرا
وأهمس للقلب بعد الحديث : أخاف عليك الأسى والندامه
أتحيا على أمل غامض وتعشق — دون رؤاه — كلامه
فيهتف قلبى : ولوكان أعمى ، ولوكان حتى مثال الدمامه

سأحيا على حبه مستميتاً ، وأحفظ بين ضلوعى غرامه !
وحين رأيتك أنكرت حبي ، وأحسست أن هواى محال
وما كان فيك الذى كنت أخشى ولكن ثقيلا كصخر الجبال
فيالهف نفسى تحطم حلمى ، وكان شهيا خلوب الجمال
رأيتك ! يا ليتنى لم أرك ، وياليت قلبي اكتفى بالخيال

وتمدنا هذه القصيدة بأكثر من حقيقة سيكولوجية ، هى أن لكل حب جمالا خاصاً ، فهناك من يحب امرأة بها عيب خُلُقى أو خَلْقى كمن يحب العمياء أو الحولاء أو الدميمة ، وبالعكس هناك من تحب رجلا سيء الخلق أو السيرة كأن يكون سكيراً أو مقامراً .

وفى ذلك يحدثنا تريدون فى كتابه « التحليل السيكولوجى للحب » « إن الفيلسوف ديكارت الفرنسى كان يحب ذوات الحول ، وقد اختار زوجة سيئة الطبع وأكبر منه سنا ، ولكنها كانت مفكرة » .

ويحدثنا جاجو أن سيـــدة حنون تزوجت شابا فى التاسعة عشرة وكان مقامراً وقاسياً ، وسكيراً ، ولكنها كانت تحبه رغم ذلك . وللمحبين غرائب ومذاهب تضل فى تعرف كنهها العقول ؛ والحب ظاهرة بشرية ملغزة ، وولادة الحب تقوم على التناقض فى بعض الأحيان .

وكم حاول الشعراء من الرجال والنساء تعريف ماهيته أو تعليل ظواهره دون جدوى ، وإن استطاع بعضهم التعبير عن آثاره تعبيراً يتفاوت فى درجة دقته ، وحيويته ، وطلاوته .

وقد حاولت الشاعرة جليلة فى ديوانها هذه المحاولة ، فى قصيدتها « سيدى » ص ١٢٢ . كما أجادت فى بيان التناقض فى الحب فى قصيدتها « تناقض » ففى قصيدتها الأولى تكشف عن آثار الحب المبهجة المقوية للنفس ، وسيطرة الحب على القلوب ، بل وسيادته عليها تقول :

يا للهوى حدث صغـــير تافه	صنع الحياة وقادنا كالمرشد
فإذا أنا كشجيرة رفافة	غنت بها الأوراق للفجر الندى
وتكاد من فرح تطير غصونها	من غير ما هدف لها أو مقصد
وإذا أنا دوامة صخـــابة	فى عمق بحر بالمشاعر مزبد
حتى إذا اخترقت عيونك مهجتى	أيقنت أنك رغم أنفى سيدى !

وتجمع هذه القصيدة إلى بيان أسر الحب وهيمنته ، بعض جواذبه التى ذكرناها آنفاً وهى النظرة واللمسة ، إذ تقول فى صدرها :

حتى رأيتك لم أعد أدرى سوى	أنى انتظرتك منذ ساعة مولدى
لم أدر ماذا قلت أو قال الهوى	لكن لمست حنان كفك فى يدى
قد تعجز النجوى ورب إشارة	جذبت عنيداً للهوى المتوقد

ويتكشف التناقض فى توليد الحب فى قصيدتها « تناقض » وفيها تؤيد التناقض الذى يجمع بين مظاهر الطبيعة ، فيوحدها ويؤلف منها وحدة جميلة ، رياح الشمال تلتقى بالجنوب فيعتنقان ، والغيم الجهم يظلل الأفق الصافى فى حنان ، وأضواء الشمس تداعب وجه النهر الحزين ، وبعد هذا تتحول فى تبريراتها إلى الواقع النفسى ، فتذكر ما يطوف بالقلوب من انفعالات جد متضاربة ، قلوب كبيرة قد تمازجها

الحقارة ، وقلوب خئونة قد ترف بها أجنحة الحقد والحسد والدناءة ، وفيها تقول :

مع الليل أسأل قلبي الحزين لماذا تعيش بظل التمني
وكيف عشقت الذى لن يكون وما أنا منه ولا هو مني
فيهتف قلبي صخوب الدم أنا لم أشذ ولم أجرم
لماذا رياح الشمال تجوب خلال الزمان
وفى سيرها تلتقى بالجنوب فيعتنقان ؟
لماذا يظلل غيم أفق ويحنو عليه
يلبي الشروق نداء الغسق فيمضي إليه

وهكذا سارت الشاعرة فى تبريراتها ، ورأيها إذ صح على بعض طوابع المحبين المشبوبين ، فهو لا يصح على طوابع أخرى ، فالطابع العاطفى الرقيق والموهوب المثقف يتوافق فى الغالب مع مثله ، من ذوى العواطف والموهبة ، والطابع الفكرى يميل بطبعه إلى مثله من ذوى النبوغ والذكاء ، فإن لم يجده عاش وحيدا ، وتنقل قلبه بين الأبوين أو الأصدقاء ، أو إلى الأعمال الخيرية ، والطابع السوى من الرجال والنساء يميل إلى الخلق الكريم ، والطيبة والجود والذكاء والطموح وغيرها من العواطف النبيلة .

— ٥ —

فإذا شاب الحب عارض من عوارض الجحود ، أو الخداع ، أو العناد ، اختنق الحب ومات ، لأن الحب لا يعرف إلا الوفاء والإيثار

والشرف والصفاء ، وفى ديوان الأجنحة البيضاء ، شواهد على معوقات الحب ، وعوامل فنائه ، فنى قصيدة « حصاد الألم » ص ٩٩ ، نقع على شاهد من هذه الشواهد هو الجحود ، وفى قصيدة « الهوى المفقود » ص ١٢٧ ، آية على أن الخداع ، وفقدان الشرف والطهر تقتل الحب ، وفى آخر فقرة منها تقول :

ثم انتبهت فإذا أنا بالأمس ، بالأمس القريب
واريت نعشك أضلعى فى ركنه الداجى الرهيب ؛
إذ هلت فوق الجثة النكراء أتربة الفناء
وعلى ضريحك قد كتبت بالاحتقار وبالجفاء
« مات الذى خدع الهوى ، لم يحترم طهر الحبيب »

وفى قصيدتها « من المرأة للرجل » تكشف عن مثبط من مثبطات الحب ، وهو العناد واللجاجة والفضول وفيها تقول :

ما ذا تريد ؟ ما ذا تريد ؟ يا أيها الرجل العنيد
يا أيها الرجل الذى لن يستفيد ولن يفيد
تمضى السنون وأنت أنت تريد تجهل ما تريد
أغرتك « سيكولوجيتى » فمضيت تبحث لن تحيد
عنى وعن نفسيتى عن كنه سرى فى الوجود
وكأننى شىء غريب نادر ، شىء فريد
ما ذا تريد ؟ ما ذا تريد ؟
أنا كل شىء فى حياتك إننى شىء جديد

البيت دونى كالردى والكون كالقبر المديد
والصبر دينى والحنان شريعتى والعطف جود

— ٦ —

الحنان والعطف دائماً يسيلان من قلبها وينثالان على قلمها ؛ ولكن الشاعرة لاتجد تجاوباً فى قلوب الأحياء ، فتضفى حنانها على ولدها المريض لتجعل منه الإبن والأب والزوج ، وتنطلق إلى الحب المطلق حب الله ، تجد فى رحابه العليا نبعة والسلوى والعزاء ، وكم ذا خاطبت الحب الأعظم فى جلال وتصوف عميق ؛ ومن ذلك قولها فى قصيدتها « صلاة الفجر » :

يارب إنك سيدى لك تنحنى كل الجباه
عرفتك روحى فى الضياء وفى الجمال وفى شذاه
عرفتك رباً كاملا فوق الكمال وما علاه
يارب إنك نبضة هى وحدها قلب الحياه
فلأمتزج بك مثل قلب نابض تسرى دماه
لأكن كجذع ثابت فى روض خلدك فى ثراه
لأكن هشيماً محرقاً من نار حبك من لظاه
لأكن كعشب غارق وسط البحيرة ، فى المياه
تغنيه كثرة مائه ، ويميتنى حب الإله
مادمت أنت تحبنى ، ماذا أريد من الحياه ؟

— ٧ —

ولم تقف الشاعرة فى شعرها على التعبير عن مشاعرها الذاتية ، ولكنها عبرت كذلك عن مشاعر الناس ووجداناتهم ، كما قرنت هذه المشاعر بحبها المطلق لله ، وتصفو روحها وتشف فتقرن هذه المشاعر بحبها للإنسانية وللطير المسكين ، وآية ذلك قصيدتها « الدجاجة » وهى تربط شعورها الأليم بالشعور الإنسانى المرهف ، فى هذه القصيدة ، تقول :

باسم الإله ! باسم الصليب
ويروح يذبحها وفى كفيه عزم لا يلين
فترفرف المسكينة اللهفى وتهمد فى سكون
رحماك يارب وأنت لنا الرحيم الأكبر
رحماك ! هل هذى الدجاجة .. حين تذبح تشعر
عفواً ، فكم سألتك نفسى فى عناد حائر
ما سر حكمتك الرهيبة فى عذاب الطائر
أيقنت أن لكل فرد فى الوجود هنا نهاية
أيقنت ! أو من أنه فى كل ما سددت غاية

وهنا تعود الشاعرة بعد ثورتها إلى إيمانها الوثيق ، وإلى الرضا بحكمة الله !.

— ٨ —

فأنتم ترون من هذه الجولة السريعة فى شعر « جليلة رضا » أنها أجادت التعبير عن وجدانها تعبيراً صادقاً جريئاً ، بما لم يسبق مثله لشاعرة عربية قبلها ، ونحن بلا ريب نعتز بمثل هذا الشعر الصادق الأصيل الذى يستأهل الإكبار والتقدير ، ومع هذا فلن نقاوم الرغبة فى الجهر ، بأن هذا الشعر دار فى مدار ضيق ، واقتصر على حقيقة من حقائق النفس والحياة ، وجدير بها أن تحول طاقتها الشعرية القوية إلى الحياة وما يعج فيها من أحداث ، وإلى حقائق الدنيا المنوعة الزاخرة وإلى العواطف السامية الأخرى ، وعلى رأسها عواطف العدل والرحمة والإيثار ، والتسامح ؛ فى بلد هو أحوج إلى بث مثل هذه العواطف فى أرجائه وبين العائشين على ثراه .

وأحسب أن الشاعرة قد بدأت تجرّب قلمها فى هذه الناحية فى قصيدتها « الصلح خير » ، التى نالت كل إعجابى وإعجاب النقاد الفاقهين ، لأنها تناولت حدثاً من أحداث الحياة العـــامة ، بتعبير زاوجت فيه : بين الفصحى ، واللهجة المصرية الشعبية ، وخرجت بوحدة عضوية طلقة جذابة ، والقصيدة جهيرة شهيرة استهلتها بقولها :

دعنى ! دعنى

لا تتبعـــنى . . !

أبداً لن أرجـــع للبيت
سـأضم البنت إلى حضنى
هى بنتى ! ، لن تبعد عنى
وسأعرف كيف أقاضيك
وأهـدم كل أمانيـك
وسأقصم ظهرك بالنفقه
أبداً لن تأخذنى شفقه
يا خائن . . . يا ناسى العشره

مثل هذا الاتجاه الواقعى الإنسانى ، سوف يرفع الشاعرة إلى القمة إذا سارت فى هذا الدرب فى وعى وإحسان ؟



محمـــود ابو الوفا

شعره وشخصيته

— ١ —

لقد قضى القدر الجائر على شاعر من شعرائنا المصريين الأحرار أن يقيده بقيد لا فكاك منه ، وأن تريشه الأحداث فى يفوعته وشبابه بسهام وسهام ، ذلك هو الشاعر المصرى الممتاز محمود أبو الوفا .

أوذى فى ساقه اليسرى فى صغره ، وبترت الساق، وقضى والده نحبه فى يوم إجراء العملية ، وعاد الفتى إلى قريته تيريس بمركز أجا ، فاذا بالدهر يلفه بعباءة سوداء شائكة .

هموم الديون التى التهمت ماخلف الوالد من مال وعقار . مما اضطره إلى الفرار من القرية الصغيرة .

واستقر به المقام فى دمياط ، ودرس بمعهدها الدينى فخفف الخمس سنوات المفروض قضاؤها فى سنتين ، كان يتعلم ويعلم ليعيش ، كان يشرب كأس المعرفة دفعة واحدة لا على جرعات ، ليجد الذريعة العاجلة لعيش مستقر .

وحملته عكازته إلى القاهرة ليتمم دراسته بالأزهر ، والجيب خال ، ومطالب الحياة كثار ، فاستحال عليه التوفيق بين الدراسة ولقمة الخبز ، وألفى أن لا مفر من إشباع البطن الخاوية . فاشتغل فى تجارة متواضعة .

هذه هى حياة «أبو الوفا» فى يفوعته وشبابه فى كلمات وهى سلسلة

من الكوارث المتعاقبة لو وقعت لغير محمود لانتابه عصاب شديد ، أو قادته إلى عالم آخر من الباب الذى يؤدى إلى الجنون .

ولكن محموداً ارتفع على آلامه ، وانتصر على متاعبه ، وتسامى بنفسه ، وتحول إلى دنيا الخلق ، الخلق الشعرى الذى وجد فيه متنفسا لانفعالاته وسعادة لروحه ؛ فأتم دواوينه : أنفاس محترقة ، وأشواق ، والأعشاب ، وأناشيد دينية وعسكرية ، ثم اتبعها فى كهولته بديوانه الأخير « عنوان النشيد » .

— ٢ —

ويكشف ديوان أشواق ، وأنفاس محترقة .. عن مرحلة حياته الأولى فى صدق وإخلاص ، ويكشف النشيد عن نقلة جديدة فى حياته وفى تطور شخصيته ، كما سيجىء .

وديوانه « أنفاس محترقة » يكشف عن موهبة غنائية ، وغنائيته فى هذا الديوان ، لم تقف عند الشعر الغزلى ، بل تعدته إلى الشعر النفسى وإلى قليل من الشعر الاجتماعى والوطنى ، وإلى الأغنية ، وأغنياته لم تحصر على الأغنية الغزلية كما فعل رامى وصالح جودت وعلى محمود طه وغيرهم من شعراء الأغنية ، وإنما الأغنية الإنسانية ، والدينية والقومية

ومن شواهد شعره الغزلى ، قصيدته « أحببتها » :

أحببتها أحببتها أحببتها ... وأحب فى الأيام يوم رأيتها
وودت لو أنى جمعت لها المنى ... وأتيت بالدنيا لها ووهبتها
تمشى مفاتنها تلحن خطوها ... الله فيما لحنت خطواتها

لم تكذب الرؤيا وقد فسرتها
وعن اسم هذا اللحن رحت سألتها
لم أدر ماقالته إلا بعدما كانت بمعصمها يدى ورفقتها
كل المنى فى لحظة أنا نلتها لما شعرت بأننى كلمتها
وكلامها إن قلت إن كلامها نغم الكمان فقد أكون ظلمتها

قصيد لطيف رفاف اللفظ ، سيال الموسيقى ، عذب الإيقاع ، نام على ممارسة حقيقية للحب ، عبر عنه باللمس وجمال الصوت ، وهما وسيلتان لتوليد الكهرباء بالجوانح .

والملحوظ أن « أبو الوفا » يعتمد اعتمادا كبيراً جداً فى أسلوبه التعبيرى على الموسيقى أكثر من الصور ، وإن كان شعره لا يخلو من الصور ، ففى القصيد السالف نجد المد الموسيقى فياضا ، ولا نجد إلا صورا عابرة كقوله : تمشى مفاتنها ، وقوله : تلحن خطوها ـ والأولى صورة حركية ، والثانية صورة سمعية ، ويخيل إلى أن أغلب صوره حركية وسمعية ومرجع هذا إلى توفز أعصابه ورهافة أذنيه ، ويمكن أن نجد شاهدا فى قصيدته « يوم اللقاء » حيث نجد كل الصور التى فيها صورا حركية .

وإذا كان استنتاجنا صحيحا فى اعتماد « أبو الوفا » على حيوية اللفظة وعلى عذوبة الموسيقى ، دون اهتمام يذكر بالصورة فهذا دال على أنه يستوحى إحساسه وذاكرته أكثر مما يستوحى قواه التفكيرية .

وفى ذلك يقول جاك مارتيان فى كتابه « الفن والشعر » .

« يمكن القول بأن الشاعر الراقع الموسيقية قوى الذاكرة ، لأن ملامح الأغنية ترف فى الذاكرة »

وإذا انتقلنا إلى شعر محمود النفسى ، وجدنا مرآة حياته وسمات نفسه منعكسة على شعره ، ففى قصيدته «ذكرى» يكشف عن ذكرياته وأيام مرحه ، بل تدلله فى حياة والده :

لهفى لأيام الشباب وما جرى لى فى الشباب
أيام كنت من الكعاب كأننى بعض الكعاب
نلهو ونلعب حيث شئنا فى السهول وفى الهضاب
لا ظنة منا تخف ولا يحوم بنا ارتياب
لهفى على تلك السنين ذهبن فى عمر الحباب
ولَيْنَ ألسنة عذابا فى ادكارات عذاب

وفى قصيدته « قيود » نراه يكشف عن نفسه الحرة المتمردة ؛ وعن الصدمة الأولى عندما بترت قدمه :

قضى زمانى علىّ أنى أمشى ورجلاى فى القيود
ويلاه مما لقيت منها ويلاه للسيد المسود

وها هو ذا يحدثنا عن مرحلة ثالثة من حياته عندما هبط القاهرة؟ فاذا به لا يجد معينا ولا عاطفا ، فسيجل ذلك فى قصيدته « لم يبق فى الحى» التى استهلها بقوله :

لم يبق فى الحى لا راع ولا والى فليت شعرى لمن أشكو له حالى

ويحدثنا فيها أنه سمع أن هناك فى رجال هذا الحى رجلا متدينا معوانا فقصده ، ولكن تأميله خاب ، لأنه وجده يمين الظباء :

فـــا تبينته حتى لقيت به جسما ولكنه من قلبه خالى
آلى على جاهه لايستظل به غير الظباء وذات الدل والخال

ويكشف أبو الوفا عن أزمة نفسية حادة دهمته فى قصيـــدته « رثاء نفسى » التى يقول فيها :

فى ذمة الله نفس ذات آمال وفى سبيل العلاهذا الدم الغالى
بذلته لم أذق فى العمر واحدة من الهناء ولا من راحة البال
كأنى فكرة فى غير بيئتهـا بدت ، فلم تلق فيها أى إقبال
أو أنى جئت هذا الكون عن غلط
فضاق لى رحبه ، المأهول والخالى
أمى وفى النار مثوى كل والدة ووالد أنجبا للبؤس أمثالى

وأود أن أذكر أنى فى كتابى « الشعر المعاصر » لم استملح الإعرابـ عن انفعال اليأس المطوف فى هذه القصيدة ، وتابعت فى هـذا الرأى الناقد الانجليزى الشهير وينشستر فى كـتابه « بعض مبادىء النقد » والذى رأى فيه أن الانفعال النازل لايقبل به فن ، ولكنى بعد كتابة ماتقدم عن هذا القصيد ، قابلنى الشاعر السورى نزار قبانى ، وأنبأنى فى همس حيي بأنه لايوافق على رأيى ، كما لاقانى صديق لأبى الوفاقائلا أن أبا الوفا صادق فى التعبير عن نفسه ، وأخذ يفضى إلى ببعض لمحات عن حياة أبى الوفا أذكر منها أن أبا الوفا عندما هبط القاهرة

على عكازتيه حار فيما يفعل فى هذا الجو الصاخب الغريب عليه ، وخطر له خاطر هو أن يلوذ إلى نجدة السلطان حسين فأرسل له البرقية التالية :

« مولاى ، إنى مغلوب فانتصر ، محمود أبو الوفا بالباب » ووقف إلى باب قصر عابدين ساعات وساعات ينتظر أمر السلطان ، ورآه حارس القصر فسأله عن سبب وقفته ، فلما سمع منه طلبته ، تبسم ضاحكا ولكن محمودا لم ييأس ، وعاد فى اليوم التالى ، ووقف وقفته ، فلم تفتح له فى القصر نافذة ! . وعاد أدراجه إلى حى الأزهر . عله يجد غذاء لذهنه ، وبطنه الجائعة معا فأقفلت من دونه النوافذ ولم يظفر بشىء ، وواتته أيام قاتمة بعدها فكر فى أن يبخع نفسه ، وكانت قصيدته « رثاء نفسى » من بنات هذه التجارب الأليمة القاسية . وأردف صاحبه يقول : إنه ليس من الصواب أن يلام شاعر على الإعراب عن صدق واقعه النفسى .

وقرأت هذا الرأى مؤخرا للشاعر الانكليزى درنكوتر ورأيته يقول : إن العبرة بصدق حقيقة الشاعر ، لا بالحقيقة التى يحبها الناقد ، والمسألة كانت مشكلة نقدية ، بين أنصار الفن للفن ، والفن للمجتمع ، الفن المعبر عن خوالج المرء مهما تكن ، والفن الدافع لخير المجتمع ، العامل على توسيع تجاريب العائشين فيه .

— ٣ —

ومع هـــذا فقد تنقل محمود أبو الوفا نقلة جديدة فى ديوانه

« عنوان النشيد » عندما انتصر على همومه وآلامه الكثار ، وعندما خبر الدنيا ، وعرف ناسها وفلسف مظاهرها فلسفة لا تقوم على مذهب بل فلسفة تقوم على المعرفة العملية ، وعلى الوعى ، وعلى التجربة ، ويصافحك فى عنوان النشيد روح إيجابية صاعدة جديدة ، واتجاه موضوعى يبشر بالحرية ، والاختيار ، والاستعلاء والإيمان بالانسان وبطاقاته الكامنة العجيبة .

ليس كالقوة فى الدنيا فضيلة
هكذا قالت لنا الروح النبيلة

ثم يتحدث عن الإنسان وإمكانياته ، ويدعوه إلى العمل الدائب والجهاد المستمر .

إن فى الإنسان طاقات اقتدار
آه لو تعرفها كيف تدار
ليس يرضى رجل حر الفؤاد
عن حياة ماله فيها جهاد
خير ما فى النفس هذا الاعتداد

ويصرخ صرخاته الذكية فى وجه الإنسان ، قائلا :

اعطنى حقى فى حريتى
ثم خذ ما شئته من جنتى
ولتكن مهما تكن لى قسمتى

وهو فى هذا الديوان يترجم عن نفسه ، بعد أن تأملها مليا ، ويعبر عن تأملاته العميقة ، والذين يعرفون هذا الشاعر ، يعرفون أن أبرز سماته هى التعالى والكبرياء وحرية التفكير ، وحب الصداقة ، والبعد عن الأطماع ، وهـــذه السمات هى التى دار حولها ديوانه « عنوان النشيد » وقد أراد به بث القوة فى النفس وخلق الثورة فى الفكرة ، وإيجاد الطموح والاعتداد ، بل خلق إنسان جديد سماه فى قصيدته الطويلة « النشيد » بانسان الفصل الخامس . وقد كتب الدكتور محمود زيتون كتابا علميا يشرح فيه هذا النشيدوعنوانه أسماه « إنسان الفصل الخامس » وأبان كيف أثر النشيد وعنوانه فيه فى أزمة نفسية حادة ، فعدل مزاجه ، وبدل مرارة نفسه ، وأحاله إنسانا جديدا . إنسانا يعرف نفسه ويشع على غيره ، ويداوى انحرافات الناس(١) .

ولا أستطيع فى هـذا المجال تناول جميع ماجاء فى هذا الديوان النقدى من فكرات ، وماوعى من نقدات اجتماعية لاذعة ، تاركا ذلك لقارئه يتملى مافيه من روح إيجابى متوثب رفاف .

ويطيب لى بعدئذ ، أن أتناول فن الأغنية لدى أبى الوفا ، وهى الناحية التى برز فيها ، حتى ليعتبر رائدا من روادها المجلين فى مصر .

وقبل تناول هذا الموضوع ، أود أن أنبه على خصائص الشعر

---

(١) تراجع الصفحات من ١٠٢ وما بعدها فى كتاب الدكتور محمود زيتون « إنسان الفصل الخامس » .

الغنائى بعامة والأغنية بخاصة والأغنية فردية أو فنية ساحرة ، أو قومية أو شعبية ، تقوم على البساطة التعبيرية ، وأصالتها ، وعلى سرعة الحركة ووحدتها ، وعلى العذوبة الموسيقية ورخامتها ، وعلى الوحدة الغنائية ، وعلى التلقائية ، ويقوم محتواها على حدة العاطفة أو الانفعال .

والعنصر الغالب عليها هو الموسيقى ، وللموسيقى البارعة أسرار وأسرار نذكر منها أولا : انسجام حروف الألفاظ وخروجها من منطقة واحدة من الفم أو من مناطق متجاورة وهو ما يسمى بالانكليزية ASSomange وبيان ذلك أن الحروف إما أن تخرج من الحلق مثل الخاء والضاد ، وإما أن تخرج من داخل الفم مثل اللام والميم ، والقاف ، والكاف ، وإما أن يأتى نطقها من خارج الفم مثل الفاء والواو والشاعر الموسيقى المبدع هو القادر - على غير قصد منه - على استعمال حروف قصيدة من منطقة واحدة ، ومن طراز هذا ما نجد فى قصائد الشابى ، والصيرفى ، ونسيب عريضه - ومحمود أبو الوفا برع فى هذه الناحية .

اسمع اليه فى أغنيته عندما يأتى المساء التى يقول فيها :

عندما يأتى المساء ونجوم الليل تنثر

فحروف هذا البيت تخرج من منطقة داخل الفم :

العين ، والميم ، والياء ، واللام ، والتاء ، ماعدا الواو فإنها تأتى من منطقة مجاورة خارج الفم .

وثانى أسرار الموسقة البارعة ، وجود تقفية داخلية ، مصحوبة بالتقفية النهائية ، ويقصد بالتقفية الداخلية وجود ألفاظ فى البيت

الواحد متماثلة فى الوزن ، ومن آيات ذلك فى شعر أبى الوفا ماجاء فى الفقرة الأخيرة من قصيدته « فى انتظار الصباح » :

هات اسقنى ياصاح كأس الهوى الفضاح
سكران ، لكن فؤادى مما يعانيه صاح
يا هل ترى لى صباح أم ليس لى من صباح

فان لفظة ياصاح فى البيت الأول تماثل لفظة فضاح وزنا ، وفى هذه الأبيات تكرار لبعض الألفاظ يضفى على موسقة القصيد نكهة لذيذة مثل تكرار كلمة ياصاح ، وصاح ، والصباح . وفضلا عما تقدم فان القافية الأخيرة مكسورة وكسرها يزيد امتدادها عند التلاوة ، مما يقوى النغم ، ويعقب الراحة .

وثالث أسرار الموسقة . هو التأكيد الصوتى باستعمال المحركات ؛ فاذا جمع الشاعر بين التأكيد الصوتى وبين انسجام مخارج الحروف ، أنتج رائعة موسيقية ، كما يقولون . وشواهد هذا نجده فى قصيدته « أريد » :

أريد وما عسى تجدى أريد على من ليس يملك مايريد
أريد أفى إلى الدنيا فأعطى لها الثمن الذى يبغى الوجود

فالشاعر يستعمل الألف المهموزة المتحركة ليحدث تأكيدا صوتيا : أريد ، أريد ، أريد ، فأعطى . والشاعر فى الشطرة الأولى يخرج حروفه من منطقة واحدة من مخارج الفم : أريد ، وماتجدى أريد .



محمود أبو الوفا

وثمت سمة أخرى فى هذه الأبيات هى استعمال حرف متماثل فى أول كل كلمة وهذا مايسميه الانجليز Alliteratiom ، أريدوأريد ، يملك مايريد ،الألف المهموزة أتت مرتين ، والياء فى يملك ويريد .

ولا يمكننا فى هـــذا المجال الكشف عن أسرار الفن الموسيقى الشعرى ، كمسايرة الموسيقى الانفعال ، وتنوعها ارتفاعا وهبوطا بتنوع الانفعال ، فى حدته أو فى سكونه وقراره ، وغير ذلك ، مكتفين بما ذكرنا من أسرار فنية .

ويقول الانصاف إن أبا الوفا لم يقتصر على الأغانى الغزلية كما رأينا فى أغنيته « عندما يأتى المساء » التى حللنا موسيقاها ، ولكنه تناول أنواعا أخرى من الأغنية مثل أغنيته الإنسانية الساحرة « أنفاس الزهر » والتى جاء فيها قوله :

تعالى زهرة الآس نذيع الحب فى الناس
فلا يصبح فى الدنيا سوى قلب على قلب
ولا نلق أمرأ يحيا لغير العطف والحب
وتصبح زهرة الآس شعار الحب فى الناس
تعالى زهرة الآس نذيع الحب فى الناس

والشاعر الذى يغنى هذه الأغنية ، من السهل على موهبته الغنائية أن تطرق كل ضرب من ضروب الأغنية ، وليس عزيزاً عليه أن يكتب الأغنية الشعبية بتعبيره السهل اللطيف ، فنسمع منه أغانى الفلاح فى مواسم الحصاد ، وأغانى العامل فى صخب الآلات ، ودخان المصانع

وأغانى الحرية ، وهذا مانترقبه منه قريبا .

وقد يسأل سائل ولماذا لم يستمر أبو الوفا فى أغانيه المنوعة ، ولماذا لم تنتفع به إذاعتنا الكريمة ، وجواب ذلك عند رجال إذاعتنا القدماء الذين حذفوا اسم « أبو الوفا » من القائمة ، فقد أريد فى أيام الحرب الكبرى على أن يكون داعية فى الإذاعة للحلفاء ، فأبى عليه إباؤه ، وثارت مبادئه ، ولم يعد إلى هذه الدار من يومئذ على مانعلم .

وها أنتم أولاء تسمعون أغانى مبتذلة بل عابثة وآثمة من أمثال « ياشمس ياشموسة » ، أو « أنا مش فاهمه الدنيا » .

فهذه الأغانى وأجناسها مسممة للروح المصرية وعامل من عوامل الهدم لها وإذاعة هذه الأغانى مما تثير النفس نفورا ، ومما يحمل أمثال محمود أبو الوفا يفر من هذا الجو المثيف ، صونا لكرامته ، وضنا بفنه أن يذال . . .



الفهرست